د. هيفاء بيطار

يوميات مطلّقة

رواية

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

الفهرس

علبة السنوات........ 7
الثالوث........ 13
الوسيط........ 19
محكمة الاستئناف........ 27
الزلزال........ 35
رحلة الحرية........ 41
صاحب السيادة........ 55
جنون........ 69
أبي........ 75
المنبوذة........ 79
أُم........ 89

علبة السنوات

أستطيع أن أنفصل عن تلك المرأة التي كنتُها، وأستطيع أن أجلس بهدوء، أضع رجلاً فوق رجل، أمضغ اللبان، أو أقزّز اللب الصغير الذي أحبه، وأستعيدُ على مهلٍ أو بسرعة أحددها بمزاجي، الأحداث التي أحب، ذلك أنني جمعتُ كل هذه الأحداث أو الظروف أو السنوات في علبةٍ كبيرة وأحكمت عليها الإغلاق، وبين وقتٍ وآخر أفتح غطاء العلبة، وألقي نظرة على كومة السنين المتكوّمة في العلبة، وأبتسم ابتسامة تحمل جزءاً كبيراً من السخرية، لا. ابتسامتي ليست مجرد ابتسامة ساخرة، إنها ابتسامة من اكتشف الحقيقة ولو متأخراً.. الحقيقة العارية الفجّة القبيحة، ولكن اكتشاف الحقيقة بحدّ ذاته هو أعظم هدف يمكن أن يسعى إليه الإنسان، لأننا خارج دائرة الحقيقة نعيش في سراب، نعيش مخدوعين، لذلك نُصدم ونتألم ونتفاجأ، أما حين نختبر الحقيقة تماماً، فلا شيء يفاجئنا ويؤلمنا، إلا طبيعة الحقيقة ذاتها خاصة إذا كانت شديدة المرارة.

لقد فكّرتُ طويلاً في جدوى ما سأكتبه، وأنا لا أعرف على وجه الدقة كيف سيوجهني قلمي. كل ما أعرفه أن هناك جوانب كثيرة في حياتنا يجب أن تُعرى وتشرح بدقة لأن فيها تشوهات هائلة، مرعبة، لاإنسانية، والأفظع من كل ذلك أننا اعتدنا هذه التشوهات حتى اعتبرناها طبيعية، وهنا تكمن الخطورة.

لقد آلمتني هذه التشوهات كثيراً، لدرجة فكرت مراراً بالانتحار، وكنت أتخيلُ كيف أدور من صيدلية إلى صيدلية، أشتري

الدواء المهدئ والمنوّم، الذي سأتناول كمية كبيرة منه ليريحني من عذابات لا ترحم، وأتخيّل أني وصلت إلى البيت، ودخلت غرفتي، وجلست على السرير بعد أن أحضرت كوب ماء، وفتحت العلب وأخرجت الكبسولات الصغيرة وفتحتها، وجعلت البودرة تتساقط منها وتتجمّع في منديل ورقي صغير، وجمعتُ كمية تملأ ملعقة كبيرة وفجأة أتخيّل أني بدأت أضحك وأنا أقترب من الموت، وأقول لنفسي هذه الكمية الصغيرة من البودرة تقتل إنساناً، وأرفع نظري عن البودرة لأرى قلمي مسترخياً فوق أوراقي، وفجأة أراه ينتصب واقفاً، ويقول لي ببساطة شديدة كأنه يقترح عليّ نزهة قصيرة معاً، أو أن نشرب فنجان قهوة في مقهى رصيف، ويتراقص فوق أوراقي وهو يقول لي حاولي أن تتخذيني وسيلة للانتحار، خذيني، خربشي بي، اكتبي، ارسمي، ألستُ أنا أفضل من البودرة القاتلة؟!

ويصيبني الذهول، قلمُ يرقصُ وحده!! قلم الإنقاذ، وسيلة الانتحار الرائعة المبدعة، وأمسك القلم وأحضر ورقة بيضاء. وأبدأ برسم خطوط ودوائر عشوائية، وأحس ببرعم نشوة صغير يبدأ يزهر في روحي، وأنفخُ على المنديل الصغير فتطير السموم تملأ الغرفة وتترسب على البلاط غباراً، مجرد غبار.

وأتابع خربشات قلمي لأجده يكتب أخيراً يوميات مطلّقة.

* * *

لا توجد لذة في العالم تفوق لذّة الاعتراف، خاصة إذا كان اعترافاً صادقاً، له هدف إنساني، أن يقدّم خدمة للناس، تفيدهم ولو قليلاً، وأنا سعيدة أنني سأكون جسراً سيعبر فوقه كثيرون، وسأحرض باعترافاتي الجريئة، تساؤلات في غاية البساطة، ولكن الغبار تراكم فوقها وطمسها.. أتذكّر منذ سنوات بعيدة حين كنتُ

في عمر الأسئلة، كنت أسأل أمي المتزنة المثقفة الذكية، لماذا تقاليدنا وعاداتنا ظالمة في بعض جوانبها، خاصة للمرأة، وكانت أمي تجيبني بذكاء إن المجتمع سيتطور، وإن هذه التقاليد ستتغير مع الزمن، وكنتُ أسأل بقلق يتزايد رغم أجوبتها الحكيمة:

– متى يا أمي!

– لا أعرف يا عزيزتي، ولكن ذلك يتطلّبُ زمناً طويلاً..

– ومن سيغيّر هذه التقاليد والمفاهيم البالية يا أمي؟

– الناس يا ابنتي..

– كل الناس؟

– لا، بعضهم، الجريئون، المغامرون، المؤمنون بمبادئ جديدة.

وكان خيالي يلتهب ويشتعل حماسة، لأفكار مبهمة لا أعرفها، ولكني أحسّ ببذورها، فأقول لأمي الحكيمة:

– ونحن يا أمي لماذا لا نساهم في التطور؟

فيبدأ الجزع يتسلل إلى ملامحها الرصينة الهادئة وتقول:

– لا، نحن لن نضحي بأنفسنا.

– ولكن كيف سنطلب من الآخرين أن يضحّوا؟

– عليك أن تكوني ذكية وحذرة يا ابنتي، فليس أصعب من تحدّي الأعراف العامة ومن يخالفها يتعرّض لأشد العقاب..

لقد وصلتُ إلى مرحلة، وجدت أنه من السخف أن نسكت، أن نخجل من الاعتراف، ولماذا يكذب الناس وينافقون، ويدّعون صفات ليست فيهم، وكل واحد يعرف بأعماقه حقيقته وحقيقة جاره وصديقه، وما معنى استمرار الحفلة التنكرية، أي سخف هذا وأي تضليل للحقيقة، وأنا سأقف بكل ثقة وشجاعة لأكشف

النقاب وأقول كل ما لا يجب أن يُقال وهذه أكثر مرة أحسّ أني أحترم نفسي بعمق، عساني أُشبع نهم العيون المتطفلة التي لا تكف عن النظر من خلال الشقوق، والثقوب، وسأتأمل المتطفلين ببرود وثقة وهم يلعقون شفاههم لذة لما سأحكيه لهم، معتقدين أن غايتي هي الفضائح، وسنرى أخيراً من سيطأطئ رأسه وينظر إلى الأرض هارباً من المواجهة مع الآخر، أنا أم هم، وأنا أرى الصورة سلفاً وأحس بنظراتهم المنكسرة، ذلك أني لن أفعل شيئاً سوى أن أحضر مرآة سحرية تعكس لهم حقيقة نفوسهم.

* * *

أفتح علبة السنوات، وأعبثُ بالأوراق الكثيرة التي تملؤها، بعض الأوراق مصفرّ لأنها تسجّل ذكريات بعيدة، وبعضها كلماتها ممحوة لأن دموعاً غزيرة سقطت فوقها، وأنا أكتبها، وتغرق أصابعي بين الأوراق فتختفي يدي في علبة السنين، وأضحك وأنا أشعر أني مسيطرة على موقف صعب، أو كأني خارج الأحداث كلها. كأنني أطلّ من جبل شاهق على سهل بعيد، فتبدو الأشجار قزمة لا تثير في النفس الرهبة، ويبدو البشر كدمى متحركة، وأرى العصافير نقطاً صغيرة متحركة، وفجأة تملؤني غبطة عارمة إذ أحس أني أمتلك حكمة الشيوخ، وأتابع عبثي بأوراق علبة السنين، وأنا أقول: شيء رائع أن يمتلك الإنسان حكمة الشيوخ وهو لا يزال شاباً، وتذكرت تلك الحكمة الرائعة: الضربة التي لا تقضي عليك فإنها تقرّبك من الكمال، وأكبر دليل علبة السنوات، فقد تمكنت بعد جهد جبار أن أحبس سنوات عمري في علبة، أن أسيطر على سحرها ونفوذها، وأطردها من عقلي، وأحبسها في قمقم أو علبة محكمة الإغلاق، ولا يبقى في دماغي سوى (مسوّدة الرسم) العاتم المنسي، أتذكره

بمزاج، وبطريقة ظريفة، إذ يكفي أن أسحب ورقة ما من علبة السنين، وأقرأ عنوانها، ثم أضع الورقة على جبيني، لتتنبه ذاكرتي بسرعة، تعرض أمامي فيلماً كاملاً لعنوان الورقة، ذلك أن خلاصة أو زبدة علبة السنين قد ذابت في خلايا دماغي وتحوّلت لحكمة أو خبرة أو ذكاء أو سحر، تحوّلت لأشياء كثيرة هامة ومفيدة، لأقل ببساطة إن عينيّ امتلكتا القدرة على اختراق كل ما حولهما، على السبر، زبدة السنوات مكنتني من قراءة ما يدور في أذهان غيري دون أن أراهم، وصرت أتسلى بقراءة أفكار الناس حولي، والتنبؤ بتصرفاتهم، ولحسن الحظ لم أخب أبداً في قراءاتي...

أتوقف عن مضغ اللبان، وقد أحسستُ بتعب في عضلات وجنتيّ، أبصق اللبان كما بصقتُ الكثير من الذكريات الموجعة أو دفنتها على الورق وأودعتها علبة السنين، أتأمل العلبة بنظرة تشع غبطة وسروراً، فقد اكتشفت لعبة مثيرة لا أملُّ منها، وأمد يدي لأباشر اللعبة وأسحب ورقة كما نسحب ورقة يانصيب من البائع، وأقول لنفسي بمرح حظك يا أم الحظوظ وتكون الورقة التي سحبتُها مصفرة قديمة، وأقرأ بصوت عالٍ: الثالوث، فأستلقي على الأريكة وأضع الورقة على جبهتي، ويتلقى دماغي الشيفرة ـ الثالوث ـ ويبدأ بعرض الفيلم المثير على شاشة كبيرة يخلقها خيالي، ويسترخي جسدي كأنه مُخدّر وأنا أتفرج على أحداث فيلم الثالوث.

الثالوث

الثالوث، أبي، أمي، أنا، نجلس في الصالون الكبير المستطيل، أبي وأمي في ثياب النوم مسترخيان على مقعدين متجاورين يتفرجان على التلفاز سواء أعجبتهما البرامج أو لم تعجبهما، وأنا أجلس خلفهما بعيدة عنهما ثلاثة أمتار على كرسي منفرد، أتأمل شعر أبي الفضي، ورقبته السمراء وكتفيه، وأراقب تحركات رأسه وتململاته في مقعده، ثم أنقل بصري إلى أمي، وأتأمل شعرها الأسود المصبوغ المرتب دوماً، وألمح طرف وجهها، ونظارة البعد التي تلبسها حين تتفرج على التلفاز. ومن وقت لآخر تدور بينهما أحاديث حول المسلسل، أو ماذا سنطبخ غداً؟ أو لماذا تأخرت رسائل إخوتي؟ زوجان منسجمان في العقد السادس، وأنا راس المثلث، امرأة مهجورة في الثلاثين، داخلي دائماً يغلي كبركان، صراخ أخرس يفجّر شراييني، وأتساءل أبداً: إلى متى؟! وشبابي المدفون بين عجوزين شبعا من الحياة، وأنتفض واقفة وأنسحب من الصالون، وأنا أحس أن بُخار الانفجار أخذ يخرج من صدري صاعداً إلى أنفي وفمي وأذني، وأدخل غرفة نومي، وأنظر لنفسي في المرآة فتطالعني صورة امرأة جامدة الملامح، شفتاها مطبقتان ولكن لو انفرجتا لخرجت من بينهما حمم، نظرة عميقة جامدة تنذر أن حريقاً قريباً سيشتعل آكلاً الأخضر واليابس، ويهدني الإعياء أخيراً من ثقل الانفعالات المحبوسة في أعماقي وأحوّل نظري إلى الملاك الطاهر، النائم بهدوء على السرير، ابنتي الحلوة، أقترب منها بحذر، أغطيها جيداً، وآخذ شهيقاً عميقاً وأنا أشم رائحتها الطفولية

الحلوة، وأغمض عينيّ وأنا أقول آه عميقة جداً، تنبع من أعمق نقطة في روحي، ويتحوّل البخار المتكاثف في أعماقي إلى قطرات صافية نقية حارة تنسكب بسرعة من عينيّ، وأندسّ في الفراش إلى جانب صغيرتي آملةً أن يرحمني الليل من أرقه المعتاد، وأحدث نفسي ـ صديقتي الوحيدة، وأقول لها بعتاب: أما آن لك أن تعتادي على الليل، وهل يُعقل أن يحرّض فيك كل ليل هذا الخوف العميق الذي يغلبك دوماً، ويذيب حججك الكثيرة لمقاومته، وماذا يختلف الليل عن النهار؟ صحيح أنك في النهار تعملين وتحتكين بالناس وتمشين في شوارع مزدحمة، وتركبين الباصات والسيارات، ولكن وحدتك نفسها تظل قابعة في مكان ما من نفسك متقوقعة كقطٍ مريض، حتى حين ترتاحين في غرفتك ظهراً وترتمين على السرير فإنك تحسّين وحدتك وأحزانك وخيبات أملك وأحلامك وآمانك، كيف تجتمع كلها متجانسة كخليط يصعب فصل عناصره، لكأن تناقضاته تصالحت وتجاذبت كشحنتين متعاكستين.

ولكن يبقى لليل سحر خاص، لكأن سواده ليس إلا حجاباً يخفي أسرار الوجود، ولكن آه ما أصعب الليل على النفوس المضطربة، إنها تتحول إلى قارب صغير تائه في بحر كبير لا شواطئ له، وفي سمائه السوداء اللانهائية تتفتق كل الأحداث والذكريات، وترتسم كل الوجوه موشومة بختم الليل الأزرق الرمادي، وتتشابك الأحداث فيقفز الماضي فوق الحاضر وتلعب السنوات لعبة العبث، فتختلط سنوات الطفولة بسنيّ المراهقة والشباب، وتتوحد الذكريات لاغية الطبقية والتسلسل فيما بينها، وتتقارب الوجوه الشبحية التي لا صلة لها مع بعضها، وتتعارف، وتحكي حوارات لا علاقة لها بالمنطق والمألوف والمعقول، وتستيقظ كل الكلمات المنسية الميتة،

وتمزق أكفانها، وتنفض عنها غبار الموت وتتجسّد، وقد تتحوّل لكائنات خرافية أو حيوانات مخيفة أو أشخاص وجوههم غريبة، وترقص الكلمات المتنكرة رقصاً إيمائياً على ألحان موسيقى هامسة يبثها الليل، حتى الطبيعة نفسها تخضع لسلطان الليل وسحره، فتتحول الأشجار لأشباح، مكتوب على جذعها بأحرف الليل البنفسجية كل الأساطير والحكايات الخرافية، ويتجوّل بينها دون كيشوت على حصانه وقد حوّله الليل لأعظم فارس في تاريخ البشرية.

وتمتلئ النفس المضطربة رهبة بالليل، وتحاول سحق سلطانه بنور المصباح الكهربائي، ولكن أي نور أصفر ميت لا قوة له ولا حيلة في غلبة عالم الليل، فالليل ليس مجرد سواد أو لون يغمر الطبيعة بسبب غياب الشمس، إنه ملكٌ متوّج لـه سلطان على الوجود كله، حتى الأشياء تخضع لسحر الليل، فتتقمص الستائر المتدلية من السقف للأرض أرواحاً شاردة، وتختبئ الجنيات وراء الأبواب المغلقة، وتهتزّ المصابيح بقوة خفية...

وتنتظرين رحمة النوم بعد أرق طويل طويل، وأخيراً تغرقين أو تنامين، ويضيعُ يوم، ويضيع شهر، وتضيع سنوات. وتتأملين اللاجدوى في حياتك وحياة الناس، وتتأملين اللامعنى، والحياة الرتيبة الروتينية التي لها إيقاع دقات الساعة، وتتوقف الساعة عن التكتكة فتنامين.

أتابع عرض فيلم الثالوث بسعادة غامرة، أفتح عيني قليلاً، ثم أغمضهما لأكمل الفيلم على شاشة العرض الوهمية. وأجد نفسي كيف أستيقظ عارفة سلفاً يومي الجديد بأدق تفاصيله، ألعب مع صغيرتي الحلوة قليلاً قبل ذهابي إلى العمل، أرتدي ملابسي، وأرسم

مكياجي البسيط وأذهب إلى عملي تاركة صغيرتي برعاية جدها وجدتها، أعود ظهراً، وما إن أفتح الباب وأدخل حتى يكون باب غرفة أهلي قد أُغلق ليرتاحا قليلاً بعد الغداء، وأتناول غدائي وحيدة كالعادة ثم أسارع إلى الصغيرة أضمها إلى صدري، وأستمتع بثرثرتها، وطلبها الوحيد أن أحكي لها حكاية، وأختلق من خيالي قصصاً وقصصاً، ودوماً تطلب الصغيرة المزيد من الحكايات، حتى أقول لها لقد انتهى الكلام، فترجوني قائلة، أرجوك احكي أيضاً.. فأقول لها حسناً، ولكن تعالي معي نجلو الصحون وننظف المطبخ، وتتبعني ثم تطلب مني أن تلعب قليلاً بالماء، فأسمح لها بعد أن ألبسها مريلة زرقاء من النايلون، وتقف فوق كرسيها الخشبي الصغير، تملأ وعاء بلاستيكياً كبيراً بالماء، وتغرق فيه الملاعق والشوك، والفناجين، ويبدأ خيالها ينسج حكايات حلوة يعجز عنها الكبار، وبعد حوالي الساعة تكون أمي قد استيقظت، فأسرع إلى غرفتي لأرتاح قليلاً، وأرتمي فوق فراشي ليس أكثر من نصف ساعة، وأطرد كل أشباح الليل من ذاكرتي المرهقة وأغمض عيني بإعياء، وأبدو كالميتة أو كالنائمة، لكنني لست نائمة ولا ميتة، وأقوم من فراشي بعد نصف ساعة أو أكثر قليلاً، ويكون جسدي المنفصل عن روحي قد أخذ قسطاً معقولاً من الراحة...

الكلام شبه مفقود بيني وبين أهلي، لقد تعبنا من الكلام، تكلمنا كثيراً في ما مضى، وانفعلنا، وناقشنا مشاكل زواجي وفشله و... أوه شيء لا مجدٍ فعلاً، وعرفت أخيراً أن الحياة يجب أن تستمر، فهي تدير ظهرها لنا، لا يعنيها أكنا سعداء أم تعساء.

بعد الظهر أذهب إلى عيادتي، أفكر بأزمة الطب والأطباء، والأزمة الاقتصادية الطاحنة، قد أستقبل مرضى، وقد لا أستقبل،

ولكنني أحسّ أن الأمرين سيّان عندي، لأن مدخولي من العيادة بالكاد يكفي ضرورياتي أنا والصغيرة، إنه مدخول قاصر أو مصاب بالشلل، لأنه يجعلني عاجزة عن أن أحلم أو أخطط بشأن المستقبل، إنه لا يسمح لي أن أقول غداً سوف أفعل كذا وكذا، أو سوف أشتري كذا وكذا، إنه يجبرني أن أطأطئ رأسي وأنظر دوماً إلى يومي وبالكثير إلى غدي القريب...

أشتاق لصغيرتي وأنا جالسة وراء مكتبي الكبير شاخصة في اللاشيء، أقرأ كتباً مختلفة متناقضة، ولا أُكمل أبداً أي مقال بدأت بقراءته، ذلك أن ذهني المتعب أصابه احتشاء فما عاد قادراً على تكملة الطريق إلى النهاية.

أعود إلى بيت أهلي، أعتني بالصغيرة الحلوة، أدفن رأسي في صدرها وبين ذراعيها، وأقول لها هيا طبطبي على رأس الماما، لأني أنا الصغيرة وأنت الماما، أنت الملجأ، والملاذ والأمل، أنت حبي الكبير الذي يفيض من صدري ويغمر الدنيا... وبعد أن تغفو صغيرتي في حضني وأنقلها إلى سريرها، أعود لأترأس رأس المثلث الوهمي أبي وأمي وأنا، وتمر السنوات...

يرن جرس الهاتف، فأجفل وأقوم لأرد، فتسقط ورقة الثالوث عن جبهتي، أرفعها وأعيدها إلى علبة السنين، أشعل سيجارة لست راغبة فيها، أنفث الدخان بملل، أطفئ السيجارة قبل أن أصل إلى منتصفها، وأعود إلى علبة السنين، أعبث مجدداً بالأوراق، أسحب ورقة وأنا أقول بمرح حظك يا أم الحظوظ، أفتح الورقة وأقرأ الوسيط.

الوسيط

أستلقي على الأريكة، وأغمض عينيّ، وأضع ورقة الوسيط على جبيني، فيتلقى عقلي الشيفرة، ويبدأ فيلم الوسيط يرتسم بوضوح على الشاشة الوهمية المتشكلة من انغلاق أجفاني، ويبتدئ الفيلم بساعة الحائط الكبيرة تُعلن الساعة الثالثة بعد الظهر، أُحضّر الصغيرة للرحلة من هنا إلى هناك، من بيت جدها وجدتها وأمها، إلى بيت الوسيط ـ عمي ـ حيث يحضر والدها لاصطحابها إلى هناك، إلى عالمه، إلى أهله، إلى جوه...

هنا وهناك تعبير أطلقته طفلتي وهي في الثالثة من عمرها، وكثيراً ما كنت أمنعها عن النوم بعد الظهر لأن موعد ذهابها يكون قد اقترب، وأغلب الأحيان كنت أوصلها بنفسي إلى منزل الوسيط أو بيت عمي، كان بيته يبعد عن بيتنا قليلاً، حوالي عشر دقائق أو ربع ساعة مشياً على الأقدام، وفي الشتاء القارس كنت ألبس حبيبتي الصغيرة معطفها الصوفي الأحمر، وقبعتها الصوفية الحمراء، وأدثرها جيداً بشال من الجوخ الأبيض، وأحملها وأسير باتجاه بيت الوسيط، وفي كل مرة كانت تنتابني نفس المشاعر، وبنفس القوة، ورغم مرور السنين، لم أعتد أبداً أن ذهابها بهذه الطريقة أمرٌ طبيعي، ففي كل مرة كان ينتابني الألم نفسه، وحين كنت أتركها في بيت الوسيط، كان قلبي ينقبض وأحس أني أودعها، وأنها مسافرة إلى مكان بعيد بعيد، وكل مرة كنت أنزل الدرج منكسرة الفؤاد، وأحياناً كنت أصادفه في الطريق ـ والدها ـ فكنت أنزل الصغيرة من حضني، فتسيرُ صامتة مهرولة تجاهه كان الصمت يجللنا

نحن الثلاثة، يسخر منا. أنا وهو والمسكينة الصغيرة.

ذات يوم قرأت أن أغلب الانتحارات تحدث في الساعة الثالثة بعد الظهر، وأظن أن ما قرأته كان إحصائية حول عدد كبير من حالات الانتحار، وقد يكون ما قرأته خبراً كاذباً، ولكني خبرتُ بنفسي معاناة الساعة الثالثة بعد الظهر، غصتُ في زمن الساعة الثالثة بعد الظهر، تلك الساعة الميتة التي تتلاشى فيها الأجساد وتستلقي وقت القيلولة ناشدة قسطاً من الراحة، وأنا شردتني تلك الساعة، عرفتها في كل الفصول. صيفاً حيث الحرارة لا تطاق، شتاء في البرد القارس، والمطر، خريفاً وربيعاً. صرت أحمل شهادة اختصاص في هذه الساعة المشؤومة، لأني على مدى أربع سنوات كنتُ أقوم بإيصال صغيرتي إلى بيت الوسيط حيث يأتي والدها ليصطحبها إلى عالم الهناك...

عرفت معنى التسكع الحقيقي، لم أكن أرجع إلى المنزل، كنت أهيم في الشوارع، أحس أن أقرب الناس إليّ هم الباعة الجوالون، وكثيراً ما كنت أقف أتفرّج على بضائعهم الرخيصة المتنوعة، وغالباً ما كنت أشتري أشياء كثيرة لا تلزمني ولا تلزم صغيرتي، وأظن أني كنت أحتاج للتعاطف الإنساني بيني وبين البائعين، أو ربما لأشعر أني أعمل شيئاً في تسكعي الأبدي، وأكثر ما كان يسعدني أن أشتري لحبيبتي حقائب يد صغيرة، أو شرائط لشعرها أو أساور ملوّنة صغيرة، وكنت أستمر في تسكعي إلى سوق الألبسة المستعملة، حيث الدكاكين المتراصة المتجاورة، والمتقابلة يفصلها شارع ضيق متعرّج وكأنه نهر ضيق، كانت الدكاكين تلفظ بضاعتها إلى الخارج، وقد اختنقت من الألبسة، وكنت أحب هذه الدكاكين لأن فوضاها وعبثيتها كانت تنسجم مع ما أحسه من عبث وضياع،

ومع الأيام تصادقت مع أصحاب هذه الدكاكين وعرفت أسماءهم وهمومهم ومشاكلهم، وكان يحلو لي أن أنبش في أكوام الثياب وأتفرّج على الموديلات الكثيرة المتناقضة التي تجمع كل العصور والأزمنة والبلدان والحضارات، تجمعها في سوق ضيقة حقيرة، وكنت أتسلى وأنا أقرأ مصدر كل قطعة، هذه من فرنسا، وهذه من ألمانيا الغربية، وهذه من الصين أو الولايات المتحدة، وكم كنت أضحك، وأنا أراقب أسماء المشهورين في عالم الأزياء مطبوعة على الألبسة، مثل إيف سان لوران، وغي لاروش وغيرها، وكانت وحدتي تتضاءل في هذه السوق، كنت أتوه بين فوضى الثياب وازدحامها، فأشعر أني وسط عاصمة أو ازدحام بشري كبير، تتضاءل فيه فردية الإنسان، وكثيراً ما كنت أتورّط بشراء ثياب لا أحتاجها، في هذا الشارع الاحتفالي كنت أنسى نفسي وأضيع في الفوضى، وتتبعثر همومي، كالثياب المستعملة، وحين كنت أغادر هذا الزقاق الضيق كنت أحس بزوغان في عيني ودوار خفيف، وكثيراً ما كنت أتمنى لو تمتد يد لتنتشلني من هذا الضياع وتعيدني إلى أسرتي الصغيرة، أنا وزوجي وطفلتي، وأتخيل لوحات جميلة مفعمة بالعواطف، كأن نكون أنا وهو بيننا الصغيرة نتغدى معاً، والنار تتأجج في المدفأة تدفئنا، بيتنا الصغير الذي تفجّر بقنبلة الغضب والجنون.. ولكن أية مشاعر خيالية هذه، والزمن يتراكم ويتكوم مثل هذه الثياب البالية المتناقضة التي أنبش فيها.

آه من الذكريات، في الشهور الأولى لتسكعي وكنت أعتقد أن عودتي إلى بيت الزوجية قريبة، وأن ما بيننا مجرد زعل بسيط سرعان ما يزول، أذكر أني اشتريت لزوجي قميصاً جميلاً جداً. لا أزال أذكره. كان نصفه العلوي أبيض ونصفه السفلي كحلياً، وبين

النصفين خط أصفر بعرض الإصبع، وخبأت القميص في عيادتي، وقلت لنفسي، عما قريب وبعد أن نتصالح سأهديه القميص وسأحكي له كيف اشتريته، وكنتُ أتخيّل كيف سينظر إليّ ممتناً من رقة مشاعري وعواطفي، ولكن، مضت الأيام والشهور. فأعطيت القميص للبواب، الذي قبله مني مسروراً لأنه لم يحلم أبداً أن يلبس قميصاً بهذا الجمال، وقد تشرب قماشه بأرق العواطف!!!

آه، ليس القميص وحده، لقد اشتريت أشياء كثيرة لبيتنا الصغير، غطاء للتلفاز، سجادة صغيرة، علباً بيضاء لها غطاء أحمر للبهارات، وخبأت هذه الأغراض في قاع خزانتي عساني أنقلها قريباً إلى عشنا الجميل بعد الصلح، ولكنني مع الأيام لم أعد أشتري، ولم أعد أحلم، صرت أتفرج وأتأمل كيف يداوي الزمن أقوى الجراح، وصرت أعرف كيف يستمر الناس في الحياة بعد أن يفقدوا أشخاصاً أحباء، ومع الأيام تحوّل يأسي إلى لامبالاة، وتوقفت وقد مللتُ من مشاعر الحزن والحسرة على ما مضى، وقلت لأنظر إلى الأمام، بل صرت أنظر باستخفاف واستهزاء للمشاعر الرقيقة العاطفية التي كانت تتدفق في صدري كالطوفان وعشت أسيرتها أشهراً طويلة، ولأن العادة تغلب دوماً، والحياة يجب أن تستمر، ولم يكن من طبعي الاستسلام، رغم أنني كنت أبدو في لحظات كثيرة وكأني أتلاشى وأموت إلا أن هذه اللحظات، كانت توقظ فيّ حب الحياة قوياً جباراً، متحدياً، لا يقبل الهزيمة.

وهكذا لم تعد الساعة الثالثة بعد الظهر تثير في نفسي الأشجان، بل صرتُ أتسكع سعيدة وبنفسية مختلفة، وما عاد زوجي الوهمي، ولا بيت الزوجية الذي ترعرعت على تقديسه

يحركان في نفسي أدنى شعور، وبدأت أعي ذاتي، وأفكر بطريقة مختلفة، صرت أقول أنا شابة أملك إمكانيات كثيرة، والحياة تمتدّ أمامي واسعة عريضة، فلأعش ولأعوض ما فات، سنوات القهر والانتظار اللامجدي، والتحسّر على عش الزوجية المنهار، وصارت أغنيتي المفضّلة، أغنية أم كلثوم (حتى الهجر قدرت عليه، شوف القسوة بتعمل إيه). وكانت هذه الأغنية خلاصة لشعور الاستهزاء من الزوج الوهمي، ومن الظروف، ومني حين كنت ضعيفة ومرتعبة من انهيار أسرتي ومن كلمة طلاق، فأنا ابنة الأسرة الشريفة التقليدية لا يجب أن ينتهي مصيري إلى الطلاق، ولكن كما تقول الأغنية فالقسوة تفجّر الثورة، وللإنسان طاقة تحمّل محدودة لا يقدر على تحمل أكثر من حدّ معين.

بعد رحلة التسكع الممتعة التي أدمنت عليها مرتين في الأسبوع أو أكثر، وهي الأوقات التي تذهب فيها الصغيرة مع والدها، ذلك أن محكمة البداية قد حددت إراءة الصغيرة لأبيها بمرتين في الأسبوع، وأطلقت حكماً بالهجر بين الزوجين غير محدود بزمان!! كنت ألجأ إلى بيتي الحقيقي، ومملكتي، إلى عيادتي بعد رحلة التسكع الممتعة هذه، ولحسن الحظ كان زبائني قليلين، لأني حديثة العهد بالمهنة التي غلب فيها الطابع التجاري على الطابع الإنساني، لذلك كنت أجد الوقت الواسع لأنطلق بأفكاري، لأسافر بأسرع واسطة نقل في العالم ـ الأفكار ـ عبر الماضي وإلى المستقبل الذي أتخيله كما أريد، وأكثر ما كنت أحب في عيادتي المكتبة الكبيرة الأنيقة التي تقسمها إلى قسمين، وكنت أغرق في القراءة هوايتي المفضلة وعزائي الوحيد، وكم من المرات كنت أغلق الكتاب وأغمض عيني، وأنا أتذوق ما قرأته، وأستمتع بالصور الحلوة والأفكار التي

أعجبتني أو لم تعجبني.. وذات يوم وجدتني أقوم إلى مكتبتي وأقلب في الكتب كأني أبحث عن كتاب محدد، ولكن لا أعرف ما هو. وحالما سقط نظري على كتاب دون كيشوت خفق قلبي، وأسرعت أسحبه من بين الكتب، وقلت هذا هو، لقد بدأت أشعر أني أتحوّل إلى دون كيشوتة، أعيش بخيالي، أقيم علاقات مع أشخاص لا وجود لهم، أؤلف حوارات، أسافر إلى مدن، وأتعرف إلى أشخاص أرسم شخصياتهم بدقة، لم أكن أعرف أن الخيال صار يغلب واقعي، وأنني خلقت في اللاشعور عالماً أنفّس فيه عن واقع لاإنساني جاف، قاسٍ يتركني معلّقة في الفضاء، أهتز كرقاص الساعة...

وحين يقترب موعد عودة الصغيرة إلى بيت الوسيط، أبدأ بالقلق والتخوف، وكل دقيقة تأخير تبدأ الظنون والهواجس تعذبني، حتى أن عمي وأولاده كانت تصيبهم عدوى القلق مثلي وكنت أبقى متحفزة متوترة حين يرن الجرس، تلك الرَنة المميزة الطويلة، رنته هو، لأنه يطيل الضغط على الزر، فأبدأ بالتصفيق، وتغمرني سعادة حادة رائعة. كأني سألقي صغيرتي بعد غياب طويل، وأستلم الصغيرة من الوسيط عمي أو ابنته أو زوجته، وفي أغلب الأحيان تكون مرهقة، متعبة أو نائمة أو مهتاجة أو قلقة، ما أصعب هذه المشاعر على نفس طفلة صغيرة لم تتجاوز ثلاث السنوات، وتهبط حبيبتي الصغيرة في بيت الوسيط في مظلتها الوهمية بعد أن عادت من عالم الهناك إلى عالم الهنا، وأحياناً كانت تبدو نزقة تصرخ من أقل كلمة أو حركة نقوم بها، حتى أنها تضطرب من قبلة، لكأنها تعبر بصراخها الطفولي عن احتجاجها على حياتها بهذه الطريقة، ومن قال إن الصغار لا يعانون كالكبار، وكم

من المرات كانت ترجع ورائحة ثيابها دخان خانق، أو أكتشف بعد قليل جرحاً صغيراً في يدها، أو بقعة زرقاء في جبهتها، وفي البداية كنت أتحدث وأحتجّ وأصرخ، ولكنني فيما بعد صرت أصمت، وقد أخذت مشاعري تتصلب معلنة ابتداء زمن اللاعودة.

أحمل الصغيرة بين ذراعي، فتسند رأسها إلى كتفي ونعود إلى بيت أهلي، تترك الهناك وتعود إلى الهنا..

وفجأة يعم البياض والنور الساطع معلناً انتهاء فيلم الوسيط، فأمد يدي إلى جبهتي لأمسك بالورقة الصغيرة متحررة منها وأحبسها مجدداً في علبة السنين.

محكمة الاستئناف

أحمل علبة السنوات بين يدي، أغلقها جيداً، وأسارع لأخبئها في خزانتي، لأن كل المقربين مني لا يعرفون قصة علبة السنوات، ولكن التفاتة مفاجئة مني إلى الأريكة تنبهني أن ورقة صغيرة مهترئة سقطت من علبة السنوات، أسارع لألتقط الورقة، أفتحها لأقرأ محكمة الاستئناف، ينخلع قلبي، فأجدني أرجع إلى الوراء، أتمدد على الأريكة، أضع الورقة على جبيني وأغمض عيني، فيتلقى عقلي الشيفرة، ويبدأ عرض الفيلم، الذي يحمل عنوان محكمة الاستئناف.

على الستارة الشفافة التي نسجتها أجفاني المغلقة أرى ذلك اليوم البارد من كانون الأول قبل عيد الميلاد بأسبوعين، يوم استيقظنا باكراً لنسافر – أبي وأنا وعمي – إلى دير مار جرجس الواقع قبل حمص بعدة كيلومترات، ضممت صغيرتي الحلوة إلى صدري طويلاً، وهمست لها بخجل أن الماما مسافرة لتلتقي مع البابا في دير بعيد بسبب دعوى الطلاق، كانت صغيرتي دافئة طرية حلوة حلاوة أعجز عن وصفها، ومر خاطر سريع بذهني وأنا أتساءل: أيعقل ألا تذوب كل الأحقاد والخلافات والمهاترات أمام هذا الملاك الصغير الرائع، الذي أشعر وأنا أضمه إلى صدري أن العالم يغيب ويتقلص ويتراجع، لتخلقني روعة الطفولة نقية صافية من جديد.. أبعدتها عني وقلت لها باي يا حبيبتي سنلتقي ظهراً أو بعد الظهر، ولوّحت لي بيدها البضة الصغيرة، وهي تزم شفتيها وترسل لي قبلة على الهواء..

غادرنا البيت باكراً، الساعة السادسة صباحاً، وكانت عتمة

كانون الرمادية تغلف الجو ونفوسنا وتملؤها كآبة، لا نعرف كيف نحاربها ونتحايل عليها، واحتاج أبي لزمن طويل كي يجعل سيارته تنشط وتنطلق، ومررنا لنصطحب عمي بطريقنا، كان عمي هو أبي الثاني وهو المحامي وهو الوسيط.

وطوال الطريق كان عمي يعظني، أنه يتوجب عليّ أن أكون عاقلة وهادئة، وأن أفكر بمستقبل طفلتي التي يجب أن تعيش بأمان بين أم وأب، وأن السنتين اللتين مرّتا، كفيلتان أن تغيرانا ـ زوجي وأنا ـ وتجعل زوجي الوهمي أو والد طفلتي أرجح عقلاً، وتحرره من أحقاده و... آه ما أسهل الكلام، كنت أصغي لكلامه وعيناي تتابعان المناظر الطبيعية الخلابة كنت أحس بروعة الفجر يشرق من داخلي الكئيب ويغمر الكون حولي، وأخذت ملامح ابنتي الطفولية العذبة ترتسم أمام ناظري على الثلج الناصع الذي يغطي الجبال والأشجار وشرفات المنازل وسطوحها، ودمعت عيناي رغماً عني، وأخذت أصلي وأنا أخاطب صغيرتي وأقول لها: لأجلك يهون كل شيء، لأجلك سأرضى بكل شيء.. وضعنا في الطريق، لم نعرف أين الطريق الفرعي المؤدي إلى الدير، ذلك أننا لم نجد أية لافتة، تدل على اتجاه الدير، وبدأ الثلج يتساقط متكوماً فوق الثلج القديم، وخاف أبي أن تنزلق السيارة، فلم يسبق له قيادة السيارة أثناء تساقط الثلوج. ولم نصادف أي إنسان لنسأله عن الطريق المؤدي إلى الدير، واستمررنا في ضياعنا أكثر من نصف ساعة، وخفنا أن نتأخر على جلسة محكمة الاستئناف، وأخيراً اكتشف أبي طريقاً ضيقاً، فدخله، فطالعتنا لافتة صغيرة مكتوب عليها دير مار جرجس...

كان بناء الدير رائعاً. وأحسست بالرهبة تغمر روحي، وتمنيتُ

لو أقضي فيه أياماً أبتعد عن مشاغل الحياة وتفاهاتها ومشاكلها. وصلنا قبل موعد الجلسة بساعة، كانت الساعة الثامنة والنصف ودخلنا باب الدير الخشبي العتيق، فطالعتنا ساحته الحجرية الواسعة تعصف فيها رياح كانون، ورغم البرد القارس، إلا أن دفئاً غريباً كان يغمر روحي، وللحظات نسيت أني قادمة لأجل دعوى الاستئناف، غمرت روحي مشاعر سامية حركها فيّ صوت الريح، وحجارة الدير العارية الضخمة، وأخذت أتجوّل في ساحته الكبيرة، وأتفرّج على صف الغرف المحيطة بالساحة بشكل نصف دائري، وانتبهت إلى نور شاحب ينبعث من نوافذ إحدى الغرف، وشدّني هذا الضوء الخافت فاقتربت من النافذة، ونظرت إلى الداخل نظرة فضولية، فرأيت مقاعد خشبية مصفوفة بانتظام. وأيقونات رائعة، وسقطت دموعي حارة لاذعة وأنا أتخيل فتاة صغيرة في الثامنة من عمرها تقف بخشوع في الكنيسة أمام أيقونة العذراء مريم، تشبك يديها ببعض وتغمض عينيها وهي تتلو الصلاة الربانية، وتجسدت أمامي تلك الطفلة البريئة فناديتها بصوت هامس، كنت أخاطب نفسي وأقول: آه يا صغيرتي، هل خطر ببالك يوماً أن تحضري إلى الدير الرائع لأجل دعوى طلاق، وأيقظني صوت أبي من خيالاتي الحلوة وهو يقول لي: تعالي، البرد قارس، ومسحت دموعي، ولحقت بأبي، ودخلت غرفة بسيطة مدفأة بمدفأة قديمة في وسطها وقد جلس كاهن شاب لطيف مع أبي وعمي، وحياني بود وسألني كيف أحب القهوة، وقبل أن يغادر الغرفة قال لنا: لقد جئتم مبكرين فالجلسات لا تبدأ قبل الساعة العاشرة، وصفعتني كلمة جلسات لتذكرني مجدداً أني قادمة إلى الدير لأجل دعوى الاستئناف بيني وبين زوجي...

شربنا القهوة الطيبة التي كنا نحتاجها بشدة، واستأذنت من الكاهن أن أنطلق خارج الغرفة، رغم تحذيرات أبي من البرد القارس، لكنني انطلقت خارج الدير، ونزلت درجاً طويلاً، ووجدت نفسي أمام أروع منظر لن أنساه طوال حياتي، كروم الزيتون الواسعة، وبناء الدير الحجري الذي يملؤني رهبة، ويهمس لي بأسرار الخلق والكون والإنسان، وأخذت أتنفس بعمق ودموعي تنسكب على وجهي المثلّج فتبرد للحال، فأحس أني أبكي دموعاً مثلجة، وأخذت أتساءل بلوعة: لماذا؟ لماذا؟ وعادت صورة ابنتي تنتشر على مساحة المنظر البديع أمامي، وهتفت بصوت عال آه آه يا حبيبتي. وأدركت بكثافة عمق تعبي، وكيف هدرت سنين من عمري في مشاكل طاحنة كأني أدور في حلقة مفرغة، أدور وأدور دون أن أحاول الخروج، ترى هل كنت قادرة على الخروج وحدي؟ وهل أتحمل وحدي مسؤولية هذا الدوران اللامجدي؟!

رجعت إلى الغرفة المدفأة، كان قد انضم إلى أبي وعمي والكاهن رجل رابع، يدخن الغليون، ويتحدّث عن خبرته الواسعة في بناء ناطحات السحاب، وعرفتُ فيما بعد أنه مهندس لامع، وأستاذ جامعي تخصص في هندسة المدن في أميركا، وأنه على خلاف مع زوجته وقد حضر إلى الدير أيضاً لأجل دعوى الطلاق بينهما...

وأخذتُ أتأمله يتحدّث عن ناطحات السحاب، وضحكتُ بسخرية مرّة بيني وبين نفسي وقلت: إنه يشيد ناطحات السحاب، ويفشل في إنشاء علاقة ودية مع زوجته.

وفجأة لمحتُ من النافذة زوجي ومحاميه يمران، ويسيران باتجاه الدير، وشعرتُ بغصة قاسية. وتذكرتُ يوم سافرنا معاً إلى بلودان

في مثل هذا الوقت من السنة، في كانون ولعبنا بالثلج كالأطفال، وحكينا بإسهاب عن المستقبل وكيف سنعيش، وكيف سنربي أطفالنا، وتذكرت كيف اعترضت على ملابسه وقلت له إنها قديمة ولا تعجبني، فقال لي مازحاً:

– إن جيبي ممتلئ بالنقود اليوم، فتعالي اختاري لي كسوة الشتاء..

وتنقلنا بين الدكاكين، واخترت له بنطالاً رمادياً وكنزة كحلية وحذاء أسود ومعطفاً قصيراً بنياً، وقال لي: ذوقك جميل جداً..

وضحكت وقلت له: من الآن فصاعداً سأختار لك ملابسك.

وردّ بسرور: هذا ما أتمناه.

وقال لي: أرجوك، اختاري هدية أقدّمها لك.

قلت: لا، لا يلزمني شيء..

ولكنه أصرّ أن يقدم لي هدية، فقلت مؤكدة إني لا أرغب في شيء...

لم نكن نمشي، كنا نقفز متلاصقين، غير آبهين بكانون وثلوجه وبرده، ولا أعرف لماذا كنا نضحك بين جملة وجملة، كانت السعادة تطفح من قلبينا وتنفلت من شفاهنا بضحكات ما كنت أعلم أننا سنغتالها يوماً. وفي طريقنا لفت نظري دمية جميلة جداً تثير الضحك، كانت حولاء، وجهها منقّط بالنمش، وجسدها طري كجسد طفل، محشوة بالقطن وتلبس فستاناً أحمر منقطاً بالأبيض، وأشرت إلى الدمية وأنا أقول له: أنظر ما أظرف هذه اللعبة، ألا تشعر أنها طفلة حقيقية تنظر إلى جانب، وبعد لحظات، غافلني قليلاً مدعياً أنه سيسأل عن نوع دخان أوصاه عليه صديقه، وأسرع يمشي بخطوات واسعة، وأنا أتأمل قامته الفارهة بعينين تؤكدان أني

أحبه، وعاد بعد دقائق يحمل لي الدمية الحولاء التي شدتني بتعبيرها المضحك، وأخذت الدمية سعيدة، وأخذت أنططها بين يدي كأنها طفل صغير، كنا نضحك بصوت عالٍ وننثر الفرح حولنا، فينظر إلينا الناس بسعادة، وسألني: ماذا ستسمينها؟.

فقلت: سأسميها بوبو...

وتذكرت بأسى أن بوبو تخلّعت وتشوهت. كما تشوهت علاقتنا تماماً...

كيف يمكن لعلاقة بهذه الحلاوة أن تنتهي إلى المحاكم والدعاوى، وتسعى إلى الطلاق! محكمة البداية والهجر، ثم محكمة الاستئناف، وبعدها التمييز، وبعدها الدمار الكلي لكل ذكرى حلوة وللحظة خطر لي لو أفتح الباب وأناديه ببساطة وأقول له: تعال نهرب إلى بلودان، كنت سأكون صادقة وعفوية ومجنونة، ولكن...
سمعتُ صوت الكاهن يعلن اسمينا زوجي وأنا كي نتجه إلى غرفة محكمة الاستئناف، وقمت بآلية عجيبة يلحقني عمي وأبي، ودخلنا غرفة المحكمة الصغيرة، وفي وسطها مصطبة، وقد وضع عليها مكتب كبير، جلس خلفه ثلاثة كهنة، المطران في الوسط، وبدا مرهقاً كأنه لم ينم كفاية، وقلّب بيديه أكداس الدعاوى أمامه، وتنهد، ولكنه أعلن عن ابتداء الجلسة، كنت أقف مع أبي وعمي في طرف الغرفة وفي الطرف المقابل يقف هو الزوج الوهمي والحبيب فيما مضى، والعدو، والظالم والمظلوم، ومن زاوية عيني كنت أراه، وخفق قلبي وأنا أراه يرتدي الكنزة التي اخترتها له في بلودان، وغاص قلبي في أحشائي متألماً، وابتدأت الجلسة، وأخذ المطران يتحدث حديثاً جميلاً منمقاً عن الحياة الزوجية، وتساءلت: أتراه يعرف هو ما الحياة الزوجية؟ لم أكن أشعر أني موجودة، كنت

فاقدة القدرة على التركيز بأي شيء، وكانت أطياف رحلتي معه إلى بلودان تختلط مع صورة ابنتي ومع صور مشوشة متلاحقة لسنوات الخيبة والضياع، كنت أشعر أني مجرّد هيكل، وكانت روحي تركض هاربة في حقل الزيتون الخلفي المحيط بالدير ترفرف محلقة في سماء عالية أتوق إليها ولا أبلغها...

وتحدّث المحاميان كل بدوره حديثاً شديد البلاغة، وأحسستُ أني طرف في تمثيلية مضحكة، ثم طلب مني المطران أن أتكلم، وسألني هل أنا مستعدة أن أرجع إلى زوجي؟

وسمعتُ صوتاً غريباً يصدر عن حنجرتي وقلت: أجل أنا مستعدة شرط أن يحترمني ويعاملني معاملة حسنة و... لا أعرف ماذا أكملت، ولكني تذكرتُ عمي كيف كان ينصحني بقول عبارات معينة، وفجأة نسيت كل هذه العبارات، ولم أقل منها شيئاً.

وسأل المطران زوجي السؤال نفسه وسمعتُ صوته، فانكمشت أذناي لسماع صوته، وأخذ يتحدث أنني زوجة فاشلة لا أتقن الطبخ، ولا أحترم أصدقاءه وأهله، وأن عصبيتي لا تُحتمل. وأحسست أني أتضاءل وأنكمش، فلم يخطر لي في يوم من الأيام أن نقف في مجلس ويتحدث عني بهذه الطريقة، يا إلهي كم صار قاسياً، كم شحنه الزمن بأحقاد لا تنتهي...

ولزمت الصمت، وأحسستُ أن المطران يميل إليّ ويقدر موقفي وقال في نهاية الجلسة:

- أنت امرأة جيدة يا ابنتي ووجه الكلام لزوجي الوهمي وقال له: راجع نفسك يا بُني ولا تهدم أسرتك.

وعجبت كيف يطلب في الدعوى أنه مستعد للرجوع إلى بيت الزوجية وهو بهذا الحقد كله؟

وخرجنا والغصّة توحدنا كلنا، وفوجئنا بكلامه عني بهذه الطريقة المؤذية التي لا تدل أبداً على حسن النيات، أتراه يريد تحطيمي ولماذا؟ هذا ما قاله عمي وأحسست أن قوله هو عين الصواب، لقد كان حقاً يريد أن يدمرني.. ولكن للأسف، لم يكن يعلم أنه بسلوكه الأرعن هذا، قد فجّر موهبة غافية في أعماقي، هي موهبة الكتابة...

وفي طريق العودة لزمت الصمت، وتوقف أبي وعمي في السوق ليشتريا بعض الأغراض المنزلية، وليأكلا شيئاً، ولم أستطع أن أفتح فمي لا للأكل ولا للكلام، وأحسست أن فمي سيظل مطبقاً إلى الأبد، ووصلنا إلى البيت يهدنا التعب العصبي. كنت أشعر أني حطام امرأة، وحالما وقع نظري على صغيرتي وكانت تلهو بحقيبة يد قديمة، انهمرت دموعي، وسارعت لاحتضانها وأنا أقول لها بصوتي الأخرس: آه ما أشد خيبتي يا حلوتي، وأصرّت أمي أن أتناول طعام الغداء، ولم أشعر أبداً أنني مشتتة كما كنت يومها، كنت أنظر في وجه أبي وأمي وطفلتي وحولي لكأني أشكك بهم أو بنفسي، آه ما أتعس الحياة، بل ما أقسى البشر.

عمّ نور ساطع أمام ناظري، وعرفت أن فيلم محكمة الاستئناف قد انتهى، سحبت الورقة، وأعدتها إلى علبة السنين، وقمت أتمطى وحدثت نفسي بثقة ومرح، ما رأيك بفنجان قهوة، ورحبت بالفكرة وأنا أستمر بالابتسام، تلك البسمة الواثقة المنتصرة، التي تؤكد لي أنني حبست كل السنوات والذكريات المرّة في علبة وأقفلت عليها.

الزلزال

رشفت الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة، وقلتُ آه ما ألذَّ القهوة، ورغم أنها تسبّب لي الأرق فأنا أحبها كثيراً، ووجدتني أقوم وأفتح خزانتي، وأنظر بحنان لعلبة السنين المعدنية العتيقة، وفتحتها، فغزت أنفي رائحة الورق، آه لم أعرف لماذا تخدّرني رائحة الورق لهذه الدرجة، حتى أشعر أني قد أغيب عن الوعي، وعدتُ أعبث بالأوراق وأغمضتُ عيني وسحبتُ ورقة وأنا أقول بمرح حظك يا أم الحظوظ، وكانت ورقة صفراء قديمة مكتوب عليها الزلزال، وتمددت على السرير، وأغمضتُ عيني ووضعت الورقة على جبيني، وبسرعة تلقّف عقلي الشيفرة وابتدأ الفيلم..

ابتدأ فيلم الزلزال بصورتي آه، كنتُ ناسية تماماً هذا الفيلم ـ صورتي وأنا في طور النفاس، في السابعة والعشرين من عمري، وصغيرتي لم تكمل يومها العشرين. كنا قد احتفلنا بعيد زواجنا الأول زوجي وأنا ودعونا الأصدقاء المقربين، وبعد أن غادرنا الأصدقاء اشتعلت خلافاتنا مجدداً، ولم نعد نحتمل مشاكلنا الانفجارية المستمرة، العنيفة بيننا، صار البيت ساحة حرب وقتال ودمار، كنت أحسبه يريد أن يدمرني ليثبت لنفسه أنه الأقوى وأنه الرجل، هذا المثقف المدّعي، كان يقبع في أعماقه، رجل شرقي متسلّط يريد أن يسود ويحكم، لن أظلمه وحده وأقول أنه مدعٍ، لأني اكتشفت أني أنا أيضاً مدعية، وأنني كنت أعتقد أنني أؤمن بأفكار ومبادئ، واكتشفت عند أول محك أنني أرسب في الامتحان. وتدخل الأهل والأصحاب في خلافاتنا، ورغم نياتهم الطيبة إلا أن

الانفجارات تلاحقت، ما يؤلمني أنني لم أعرف الأسباب الحقيقية لخلافاتنا، إن أسبابها مقنعة، فأنا أرفض الترويض، دون كيشوتة حالمة يصعب أن أخضع لسيطرة، أو لقمع وهو إنسان قاس ورث القسوة عن أبيه وجده، وسأذكر ذلك فيما بعد، ولم يكن يراعيني أو يرحمني، إلى أن تدخل عمي الذي أقحمناه في مشاكلنا، واقترح أن أرتاح عند أهلي أسبوعين أو ثلاثة خاصة وأني نفساء، عسى هذه المدة تهدئ النفوس، ولكن النفوس شُحنت بكل طاقات الناس على شحذ النفوس وإشعال الحرائق، وإحلال الخراب، وأخذت أسمع كلمات لم يخطر لي أبداً أن أسمعها في ظرف كهذا، وهو بدوره كان يسمع كلاماً يحرق ويدمر ويؤذي، وسقطنا في الفخ ووقعنا فريسة الكلام. وانقضت الأسابيع الثلاثة، ولم يبادر إلى زيارتي أو الاتصال بي، وقال لي المقربون: إياك أن تنكسري، اصبري حتى يأتي هو، ورجله فوق رقبته، وهو آتٍ لا محالة وأظن أنهم قالوا له الكلام نفسه: انتظر حتى تنكسر شوكتها... ومرّ شهر آخر وصارت المحاولة أصعب، وزاد الكلام وتحوّل لحواجز كثيرة بيني وبينه، وذات يوم غافلت أهلي وذهبت إلى بيتي، البيت الصغير الجميل الذي يعني أسرتي وأحلامي وحياتي، وكنت أتقصّد أن يكون غائباً في عمله، ودخلت البيت، وما أن احتواني حتى بدأت دموعي تنسكب بحرقة لاذعة، وتجولت في الصالون، ووددت لو أمسح الغبار عن الكراسي، ودخلت المطبخ ولمست البراد بحنان وفتحته، كان فقيراً ليس فيه إلا الجبن والبيض والخبز، وأغمضتُ عيني بألم كبير حين رأيت فنجان قهوة وحيداً، وقد يبست القهوة في قاعه، وتذكرتُ كيف كنت أُعد قهوة الصباح، وأحضر فنجانين اثنين، وسارعت في الخروج لأني لم أعد أحتمل انفعالاتي المتعاظمة، وقبل

أن أفتح الباب لمحت قميصه معلقاً، اقتربت وشممته فخفق قلبي، لقد أحسسته يقف قبالتي، وخاطبته بصوت يختنق بالدموع:

- أهكذا تقسو، ألهذه الدرجة؟

وانطوت هذه الزيارة، ولم يعلم بها أحد. ولم تتمخض عن شيء، ولكن موجة التفاؤل غمرتني، وقلت سنعود قريباً، خاصة أن عيد الميلاد ورأس السنة قريبان واشتريت كنزة زرقاء جميلة، كان يقول لي إن اللون الأزرق يليق بي كثيراً، وتخيلته كيف سيعلّق على الكنزة وأنا ألبسها، ولكن الكنزة اهترأت وشاخت قبل أن يراها أو يعلّق عليها.

ومرّ عيد الميلاد بغصة لم أعرف أقسى منها في حياتي، كنت منكسرة النفس، وأخذت بشرة وجهي تختنق وتمتلئ حساسية غريبة، نقط حمراء صغيرة، وعرفت أن سبب هذه النقط نفسي.

ومرّ يوم رأس السنة والحواجز تتزايد، وبعد رأس السنة بأيام فوجئت أنه قد أرسل لي ثيابي كلها وأغراضي في علبة كرتون كبيرة، وجن جنوني، واجتاحني الغضب كعاصفة تجتاح حقل سنابل وتسحقها سحقاً.

وخرجت مسرعة أريد أن أقتحم بيتي، وفوجئت أنه غيّر القفل، وأن المفتاح الذي معي لم يعد يفتح، والتهبت بالغضب أكثر وأكثر، وما من نتيجة ترتجى.

آه من الحقد، بذور الحقد تنبت الدمار والسرطان، أهكذا إذاً تزرع الحقد حسناً، وانتقلت لي عدوى الحقد، وتخيلت ثيابي التي كانت مرتبة بدقة وجمال في الخزانة الكبيرة، كيف أرسلها لي كومة، كيف استطاع يا إلهي، إن قسوته غريبة الشكل، وتذكرت ثيابه وكنزاته التي كنت أنضدها بعضها فوق بعض بدقة لامتناهية، وتوّج

جنون حقده أن باع غرفة النوم، وسمعت الخبر من الجيران والأصحاب، وبعد أشهر ترك بيت الزوجية وانتقل يعيش حياة عازب أو طالب أو شاب عابث دون أن يفتكر أن طفلة رائعة تنتظر أن يغلب حبها على حقده، وتعيش معه في بيت يغمره الأمان والاستقرار والحنان...

بذور الحقد لا تزهر، بل تتحوّل لغابة من الشوك بكل أنواعه، وأذكر نباتات تشبه كرات من الشوك، كنت أخشاها وأنا صغيرة، وأُدهش كيف يلتهمها الحمار دون أن تخز الأشواك فمه ولسانه، الآن اكتشفت المعادلة الرمزية الدقيقة، فإذا استطاع الإنسان أن يأكل الشوك ويهضمه فإنه يتحوّل إلى حمار، فبعد ثلاث سنوات تحوّلت بذور حقده التي نثرها في الجو إلى غابات من الشوك، ونمت الأشواك بسرعة سرطانية وتحوّلت لنباتات عملاقة. وعلى مدار ثلاث سنوات أو أكثر من ألف يوم كنت أختبر أشكال الحقد اللانهائية، واكتشفت أن الحقد لا حدود له، وله أشكال لانهائية، وأنه في النهاية يحرق صاحبه ويحوله إلى هيكل أو مستودع لغليانه الأسود الأشبه بالقطران.

لقد خبرت غليان الحقد، لكنني قاومت بقسوة أن أتحوّل لمستودع له، رفضتُ عبوديته. حاول الحقد أن يسحقني لأني كشفت أسراره كلها، لكن شعلة متمردة، في داخلي غلبته، ولم يتمكن سائله القطراني من إطفاء هذه الشعلة، رغم أني اعتقدت مرات ومرات أنه أطفأها وسحقها، لكن الشعلة كانت تضيء من جديد مبرهنة للوحش الأسود أنها تغلبه وتعمي بصره، ونجوت من الغرق في أكبر محيط في العالم، يضم الحيتان المفترسة، محيط الحقد.

بعد ثلاث سنوات من العراك مع الحقد، وجدتني أستيقظ

ذات يوم مبتسمة، وفتحت النافذة، واستنشقت بعمق هواء الفجر النقي، كان للهواء رائحة زهر العسل، ودهشت من أين غزتني هذه الرائحة مع أن الجو خريفي كئيب، وركزت حواسي في الرائحة الحلوة التي أشمها، أجل إنها رائحة زهر العسل. وقفزت ممزقة رداء الحزن المريض، وهتفت حنجرتي بصوت جديد إنها رائحة الشفاء، واكتشفت أن الدمامل المنتشرة تحت جلدي التي كان الحقد قد ملأني بها وزرعها في جسدي كله، قد تلاشت، وأخذت أتلمس مكان هذه الدمامل في رقبتي وصدري وظهري وتحت إبطي، وجسدي كله، يا سلام، معجزة حلّت بي وشفيت من دمامل الحقد، انتصرت الشعلة أخيراً وانتشرت رائحة الشفاء التي تشبه رائحة زهر العسل، وغمرت المكان حولي، ووقفت على الشرفة لامبالية ببرد الخريف العجوز، أدركتُ أول حقيقة غيّبها الحقد الأعمى عن عيني لسنوات، أدركت أني شابة. الشباب ثروة، وقلت بثقة شابة جميلة ذكية، وتذكرت وجهي وملامحي، ولون شعري وطراوة بشرتي وقوامي، عجباً كيف نسيت نفسي لهذه الدرجة، وعدت إلى غرفتي، وأمسكتُ بقرف رداء الحزن المريض، ورميته من النافذة، فتقاذفته رياح الخريف دون رحمة وصفعته شمالاً ويميناً، غرباً وشرقاً وسقط أخيراً في بئر الفناء، ووقفت أمام المرآة أتأمل نفسي الجديدة، كانت بشرتي تشعّ نوراً خفيفاً وعيناي تلمعان كنجمتين لن تنطفئا أبداً، واقتربت مني صغيرتي الحلوة وسألتها بصوتها الحلو وقد أصبحت تجيد الكلام، وهي في الرابعة من عمرها: ماما، ما بك؟...

قلت لها: آه يا حبيبة الماما، لقد شفيت.......

وتفجّر حب الحياة في داخلي بقوة لم أعهدها أبداً في السابق،

وقررت أن أعيش وأن أعوّض الزمن الضائع، السنوات التي أذابت زهرة شبابي ووجدتني أهزأ من مشاكلي الماضية وقهري على غرفة النوم، والبراد، والسجادة، والصحون، ولخصتُ كل مشاعري المهدورة بسخاء فيما مضى بكلمة صغيرة تصلح أن تكون فلسفة أحياناً هي كلمة طظ. ووجدتني ألبس فستاني الأبيض الواسع، وأعقد حزامه العريض الأسود، وأزين صدري بوردة حمراء صغيرة، وأنظر إلى صورتي برضى في المرآة، وأمسكت حقيبة يدي وقلت لأمي، لقد قررت أن أسافر في الرحلة السياحية إلى مصر.

وسألتني أمي وهي تلاحظ اختلافي الصريح عما كنته، وسألتني: ولكنك لم تكوني راغبة في الرحلة.

وضحكتُ وأنا أقول: بل لم أرغب أن أسافر كما أرغب الآن.

وانتهى فيلم الزلزال، فطويت ورقته، وكدت أمزقها، لكنني ضحكت طويلاً ودفنتها في علبة السنين.

رحلة الحرية

هذه المرة لم أقل حظك يا أم الحظوظ، بل [illegible] ورقة رحلة الحرية، لأني مشتاقة كثيراً لاسترجاع [illegible] في حياتي حتى الآن، رحلتي إلى مصر... وأخيراً [illegible] المطلوبة فتمددت على السرير، ووضعت [illegible] جبهتي، وابتدأت أتفرج على فيلم رائع سميته [illegible] الطابق التاسع في فندق البرج في القاهرة المطل على [illegible] أطل على أم الدنيا، وكان النيل يمتد عريضاً [illegible] بأسرار الفراعنة وروح المصريين الخالدة ليقسم [illegible] وكنت أتأمل من شرفة غرفتي في الفندق [illegible] العالية الأنيقة تخطب ودّ النيل كحبيب يخطب [illegible] أقرأ اللافتات البعيدة المنارة بأضواء ملونة، [illegible] ماريوت، الهوليداي إن، وغيرها، ثم أنقل نظري [illegible] تعبر النيل بغنج وتؤدة محمّلة بالركاب، يا [illegible] رائعة تلك الزوارق، وكم كنت أُفتن بالضباب [illegible] يغمر القاهرة كلها ويزيدها فتنة كحورية تغفي [illegible] شفاف.

استمتعت برحلتي إلى القاهرة إلى حدّ لا [illegible] مخزون سنوات من القهر والحقد، وتنهدت [illegible] ببساطة أنني استعدت قدرتي على الشعور بالسعادة [illegible] وما أغناها، كيف يحبس الإنسان نفسه في قمقم [illegible] من السنوات تضيع هدراً، بل قد يضيع العمر [illegible]

سراب، وأخذت أختبر نفسي لأتأكد من شفائها، فأستحضر أشد الحوادث إيلاماً لي، فأراها تمرّ بذهني كأنها لا تعنيني، وأحسست أني ولدت من جديد، وقلتُ الولادة من رحم الآلام هي الولادة الحقيقية، إنها تعطي الإنسان مناعة ضد كل الأمراض الخطرة كالاكتئاب والحزن واليأس. واستعدت ثقتي بنفسي، نفسي التي كانت عبدة دوماً للخوف، الخوف من الزوج الذي يبني قوته الوهمية على خوفي، ولولا خوفي لما كان قوياً أبداً..

وتذكرت السنوات الضائعة وأنا سجينة الخوف. كيف كنت أستيقظ ليلاً على كوابيس غريبة، وأجلس ساعات أرتجف مترقبة حلول اليوم الذي يستطيع فيه زوجيَ أن يخلّصني ابنتي بحماية القانون، وكنت أتذكر مئات القصص عن أطفال انتزعوا من أحضان أمهاتهم أمام هيئة المحكمة وجروا جراً بقوة الشرطة إلى آبائهم، وكانت الجدران والستائر والخزانة تشهد على خوفي الذي يقارب الذعر، وكم من المرات كنت أسكب الدموع الغزيرة، وأنا أنحني فوق حبيبتي النائمة أغرق يديها وقدميها بالقبل.

قدّم لنا قائد الرحلة شاباً مصرياً وسيماً، على أنه صديقه الحميم ويمتلك مكتباً سياحياً هاماً في القاهرة، وقال إن صديقه يتطوع أن يقدم لنا خدماته في اليومين الذين سنقضيهما في فندق ريجنسي في الإسكندرية المطل على البحر...

كنت أتسلى وأنا أتأمل عازبات الرحلة وعانساتها، كيف تنشطن وكأنهن تناولن جرعة عالية من الفيتامينات والمنشطات، وأخذن يتدللن على الشاب المصري ويحاصرنه بالأسئلة وقد تفجّر في أعماق كل واحدة مئة سؤال، هل نشتري الجلد من الإسكندرية؟

– هل صحيح أن محلات الدبور أفضل محلات بيع الألبسة الجلدية؟

– ما رأيك بمحلات إم إم، أليست أفضل؟

– أرجو أن تدلنا على مجمّع عمر أفندي.

كنت أجلس في بهو الاستقبال في فندق البرج قبل انطلاقنا إلى الإسكندرية، أشرب الكأس الثاني من عصير المانغا المثلجة، وأراقب السينما الحية أمامي وأنا أضحك، وحانت من أمير أحلام الآنسات، فاتن العذارى، التفاتة سريعة، فلمحني على عجل، ووجدته يتوقف لحظة ليعود يتأملني أجلس بلامبالاة مفضلة عليه عصير المانغا.

التقت نظراتنا لوهلة، كنت مستمتعة بعصير المانغا اللذيذ، ولمحته يخرج سيجارة من جيبه ويشعلها، ويبتسم لي ابتسامة خفيفة لم يلحظها أحد غيري، وحوّلت نظري عنه وأنا أضحك بسري وأقول: يا لغرور الشباب، لقد آله ألا أهتم به.

تلقينا الأمر من رئيس الرحلة بالتوجه إلى الباص المكيّف الذي سينقلنا إلى الإسكندرية وكنت أول من اتجهت إلى الباص، لأن الحسناوات العازبات افتعلن التأخير كي تتمكن كل منهن من الاستئثار بالتاجر المصري الذي فتنهن.

جلست إلى جانب سيدة في عقدها السادس، وكي لا تبادرني بالكلام فقد فتحت كتابي وأخذت أقرأ الزيني بركات منشدة لأسلوب جمال الغيطاني المميز، وكان التاجر المصري ذكياً لم يجلس طوال الرحلة، بل ظل ينتقل بين المقاعد يسألنا إذا كنا نريد شيئاً، وأنه مستعد لأية خدمة نريدها منه، وأمسك مكبر الصوت وحدثنا عن الحب الكبير الذي يكنه الشعب المصري لشقيقه الشعب

السوري، وكنت مستغرقة بأسلوب الزيني بركات حين سمعته يخاطبني فجأة ويسأل:

– الآنسة مستغرقة في القراءة، ألا تريد أن تشرفني بخدمة أقدمها لها؟

ونظرت إليه ببرود، ووددت لو أقول له: أرجوك اتركني وشأني.

ولكني أجبته: لا شكراً.

وسأل بلطف، ألا ترغبين أن تشتري شيئاً من الإسكندرية؟

وقلت: لا أعرف بعد، قد أشتري وقد لا أشتري.

وردّ متمنياً لو يطول الحديث بيننا: جميل منطق الاحتمالات هذا.

ولم أجبه، نظرت إليه نظرة أفهمته من خلالها أني لست راغبة في استمرار الحديث، فاعتذر وقال: أنا آسف قطعت عليك سلسلة أفكارك، يبدو أنك مستغرقة في القراءة.

– لقد حزرت فعلاً فأنا مستغرقة في القراءة.

وتركني مبتعداً، وعدت أغرق في القراءة، لكنني بعد لحظات أغلقت الكتاب وانطلق نظري يتأمل جمال الطريق والحقول الواسعة الممتدة بين القاهرة والإسكندرية.

وصلنا الإسكندرية مساء حوالى الساعة السادسة والنصف، وأسرعت الآنسات إلى غرفهن استعداداً للسهرة التي سنحضرها في فندق سان إستيفانو. واخترت أنا الجلوس في بهو الفندق المطل على البحر، وطلبت فنجان قهوة مغلية جيداً، لأني لاحظت أنهم لا يغلون القهوة جيداً في مصر، وأشعلت سيجارة، وأخذت ألاحق حركة الموج، ومن بعيد لمحت رجلين يدخنان الأركيلة، ولم أجد

نفسي إلا وقد انتفضت مسرعة، أُلبي نداء البحر، وفتحت باب الفندق الزجاجي، لأعبر الشارع، وأركض تجاه الموج، وأخذت أركض لأول مرة في حياتي. وأنا أحس أني أطير، لم أكن أشعر بحركة ساقي ولا يدي، ولا أنفاسي المتلاحقة، كنت أحس بالهواء المنعش فقط ينقي بشرتي ويداعبها، وعدت إلى الفندق وأنا ألهث سعيدة، وجلست في مكاني حيث لا تزال القهوة تنتظرني، وكتاب الزيني بركات يغريني بمعاودة القراءة، كانت مشاعري تخفق مضطربة كأنفاسي اللاهثة، واحترت في تفسيرها، أهي رغبة بالضحك أم بالبكاء، ولكن دفعة من الدموع المباغتة سقطت بغزارة من عيني، واحتجت لبذل مجهود كبير كي أبتلعها للداخل، وأشعلت سيجارة وأخذت أنفث الدخان وأراقبه كيف يخرج من فمي كثيفاً ثم يتلاشى ذائباً في العدم كهمومي تماماً.

وتنبهت للصوت المصري الدافئ يخاطبني: – عفواً آنستي، هل يزعجك أن نتحدث قليلاً؟ والتفت إليه وقد شعرت بعمق تهذيبه وقلت له: لا أبداً.

كنت أحتاج أن أكلم إنساناً غريباً، لا أعرف عنه شيئاً، ولا يعرف عني شيئاً، الحديث مع الأغراب يتركنا أحراراً، لسنا مطالبين أن نقول كلاماً لا نرغب فيه أو مفروضاً علينا.

وسأل بأدب: هل أستطيع الجلوس؟

قلت: تفضّل.

سأل: ألا تنوين الذهاب إلى السهرة؟

قلت: بالطبع.

قال: ألن تستعدي كزميلاتك؟

ضحكت وأنا أقول: سأستعد، ولكن استعدادي لا يستغرق

أكثر من عشر دقائق.

- أخشى ألا أكون قد سببت لك الإزعاج حين كلمتك في الباص.

- لا أبداً.

- فعلاً أنت مختلفة يا آنسة، منذ أن لمحتُك قلت هذه الفتاة مختلفة.

ضحكت وأنا أقول: ولماذا تشعر أني مختلفة..

- أوه لا أدري، ولكن في عينيك شيئاً غريباً، عميقاً....

كنت مرحة متحللة من قيود الكلام، قلت له: أنت تقرأ لغة العيون إذاً.

أجاب: أجل.

وقدم لي نفسه، وقدمت له نفسي، اسمي ومهنتي، وأحسست بسخافة هذا التعارف، وفجأة انتفض وهو يقول لي وكأنه اكتشف شيئاً هاماً:

- في عينيك تجربة.. أجل هذه هي الكلمة التي أفتش عنها..

وأعجبني التعبير، ولكني تظاهرت أني لا أهتم لتعليقه.. وسألني:

- هل أعجبتك القاهرة؟

قلت: جداً، جداً.

- ما الذي أعجبك أكثر شيء فيها.

ودون تفكير وجدتني أجيب: الحرية.

واستدركت تلك الهفوة، ونظرت إليه متأسفة.

ولم يتركني أكمل قال وكأن الكلمة سحرته فعلاً: هذا أجل جواب أسمعه في حياتي.

وقلت: أقصد أن الرحلات تريح الأعصاب، وتجدد النفس، والقاهرة مدينة آسرة، فاتنة، رائعة.

وحدثته عن إعجابي الشديد، بالأهرامات، وبالقرية الفرعونية، وقلت له إنني لا أعتقد أبداً أن شيئاً بعد الآن سيثير دهشتي كالقرية الفرعونية، فهذه الرحلة البطيئة في النيل وأنا أتفرّج على الفراعنة أمامي كيف يبنون بيوتهم، وكيف يرسمون على ورق البردي جعلتني أشعر أني أسافر عبر الماضي لأعيش سحر زمن الفراعنة.

وصفق للنادل وطلب كوبين من عصير المانغا، ونظرت إليه بدهشة:

قلت: لا أرجوك، لقد شربت قهوة. يكفي.

وضحك مدركاً رغبتي العميقة بعصير المانغا وقال مازحاً:

- يجب أن تشبعي من شيئين في هذه الرحلة الحرية والمانغا.

وسألته: كيف عرفت أنني أحببت عصير المانغا؟

وردّ بلباقة: أتظنين أني لم ألاحظ كيف كنت تشربين عصير المانغا في بهو فندق البرج في القاهرة.

وضحكت وقلت له: لم أكن أعرف أنك دقيق الملاحظة لهذه الدرجة.

وسألني: هل ترغبين في شراء أغراض معينة من الإسكندرية؟

وقلت ببساطة: أرغب في شراء هدية لابنتي.

وأحسست باضطرابه. وسقطت نظرته على يدي وقال بغصة لم ينجح في إخفائها.

- أأنت متزوجة؟

ورددت بلامبالاة ومرح: نعم ولا.

- تقصدين مطلّقة؟

- نعم ولا.

كنت أحس بسعادة غامرة في السخرية وقال لي بدهشة: لم أفهم شيئاً.

قلت له: أنا لست معلّقة ولا مطلّقة، أنا أعيش بين السماء والأرض.

ونما الحديث بيننا بسرعة، وأخبرني أنه مطلق أيضاً، وأن عنده طفلاً عمره أربع سنوات، وهتفت: إنه بعمر ابنتي تماماً.

وسأل بدهشة: ولماذا لم يتم طلاقك بعد؟

وتابعت بمزيد من السخرية: أوه كلا، الهجر أولاً، الهجر الذي يشبه الهجرة أو الموت وتساءل: وكم سنة يستغرق الهجر؟

قلت وأنا أحس أن الكلام هو أعظم تسلية في الوجود: سنوات وسنوات، وأحياناً ينتهي العمر ولا ينتهي الهجر.

- غريب، أية قوانين جائرة هذه...

- أوه، يا صديقي المطلّق، إنها قوانين صيانة الأسرة، وحماية المطلّقة من الذئاب.

وأخذت أضحك بينما هو يزداد جدية وتفكيراً.

وقال:

- ولكن امرأة رائعة مثلك، حرام أن تعيش هجراً لا محدوداً.

ونظرت إليه ببرود وقد كففت عن السخرية:

- هذا أمر يخصني وحدي.

وقال برجاء: أرجو ألا تسيئين الظن بي، ولكني أريد أن أصارحك أنني معجب بك للغاية.

- وهل أنت هكذا سريع الإعجاب بمن تصادفهن.

- لا أبداً، ولكن فيك شيئاً مختلفاً، لأقلْ سحراً خاصاً شدني

إليك.

ونظرت إليه ببرود وقلت له: أرجوك، لا تتكلم معي بهذه الطريقة، أنا متعبة وأحتاج لنقاهة طويلة.

وردّ بتصميم: وهل يمنع أن أكون أنا النقاهة؟

- أجل، هناك مانع قوي.

- وما هو؟

- أنا لا أرغب أن تكون أنت نقاهتي.

اعتذر وقام منصرفاً، ولكنه عاد بعد دقائق ومعه كوبان من عصير المانغا، فجلس، وحدثني عن ابنه، وحدثته عن ابنتي، وبحثنا عن النقاط المشتركة بين ابنه وابنتي، وأخرجت صورة صغيرتي من حقيبتي، فتأملها طويلاً، وتمنى لو كان يحمل صورة ابنه. وحدثني عن معاناته القاسية مع زوجته التي اضطرته رغماً عنه للانفصال عنها، كنت أعرف أنه صادق لأنه يريد أن يكون صادقاً مع امرأة غريبة، تعرّف بها مصادفة ولن يلقاها بعد أيام مدى حياته، وسألني وقد قصرت المسافة بيننا، وصرنا أصدقاء تجمعهما خانة الطلاق:

- حدثيني عن سبب خلافك مع زوجك..

وضحكت: زوجي الوهمي، أوه أرجوك، اعفني من الحديث، هل تريد أن تفسد علي متعة عصير المانغا؟...

وانتقلنا للحديث عن جمال الغيطاني، وأخبرني أنه يعرفه شخصياً، وحسدته على معرفته به، وتحدثنا عن عمالقة الأدب في مصر، وقلت له: إنني أتمنى أن ألتقي بالكاتب الكبير نجيب محفوظ وأخبرني أنه باستطاعته أن يدبر لقاء لي معه، فلم أصدق، كدت أطير من الفرح، وقلت له بفرح طفولي: هل هذا معقول؟

وقال: نعم، فالأستاذ نجيب محفوظ يجلس كل صباح باكراً في مقهى معروف في القاهرة، ولو أحببت نذهب إليه.

- وهل يقابلني ببساطة؟

- أجل، إنه شديد التواضع.

واتفقنا على تحقيق هذا اللقاء، حال عودتي إلى القاهرة، واستأذنته كي أصعد إلى غرفتي لأستعد للسهرة، وقبل أن أتركه، قال لي متردداً:

- هل يمكنني أن أجلس إلى جوارك في السهرة؟

ورددت ضاحكة وأنا أشعر أني أعود صبية في الخامسة عشرة: أوه لا أدري، حاول أن يبدو الأمر مصادفة.

- وهو كذلك.

- كانت رفيقتي في الغرفة متزينة لدرجة أثارت ضحكي. وسألتني: ألا أبدو جميلة؟

قلت لها: أتعرفين، أحياناً أشعر أن الحياة تثير الضحك بشدة.

ولم يهمها ما قلت، عادت تسألني ألا أبدو جميلة؟

قلت لها: أجل، وأظن أن الكثير من العرسان سيتقدمون لخطبتك هذا المساء.

وتمنّت لو يصدق كلامي، رغم أنها قالت: أوه أنا لم أتزين بقصد اصطياد عريس.

ورددت بمرح: أعرف، ومن وجّه لك هذه التهمة الباطلة؟!

* * *

لو سئلتُ ما أروع لحظة أحسستها في رحلتي إلى مصر، لأجبت بثقة. إنها تلك المصادفة. التي جمعتني لدقائق بالكاتب الكبير نجيب محفوظ، لقد أضاء كياني كله لحظة التقيته، وأحسست أن

تلك اللحظات ستترك أثراً بليغاً في نفسي. ولن أنساها ما حييت، وسأحفظها في ذاكرتي في أقدس مكان. في ذلك المكان الذي يخبئ فيه الإنسان جواهره الثمينة. وكما يقال رُبَّ صدفة خير من مئة ميعاد. هل كنت أتخيل أنني سألتقي يوماً بالكاتب الكبير الذي عشقت مصر من كتبه، أما كنت أستعيد قصصه كلها وأنا أتفرج على الحسين وخان الخليلي، والنيل الخالد؟ وفي القاهرة التي تعجّ بالملايين، شاء القدر أن يقدم لي هدية قيّمة قبل أن أودع القاهرة الساحرة، وفي اليوم الأخير من الرحلة وبعد أن حزمت حقائبي وأنزلتها إلى صالة الفندق، بانتظار الساعة الثالثة بعد الظهر حيث ستتجه إلى مطار القاهرة، جلست وحدي أتأمل كيف تبتدئ أشواقي تكبر لكل زاوية شاهدتها في مصر، وكيف أن حنيناً قوياً بدأ يتحرك في قلبي، أشعر به، كما تشعر أم بحركات جنينها الأولى، وتساءلت: هل يمكن ألا أزور القاهرة مرة ثانية؟! كان الوقت حُراً، وفضّل أغلب المسافرين التسوق، وفضّلت أن أودّع القاهرة وأنا أطل عليها من الطابق التاسع لفندق البرج. وتنبهت لصوت قائد الرحلة يسألني: ما بك تجلسين وحدك؟

- قلت: لست راغبة بالتسوق، سأنتظر في الفندق حتى يحين موعد السفر...

وقال لي: تعالي معي. سأشتري جبنة رومي، تشتهر بها مصر. ورحبت بالفكرة، ورافقت قائد الرحلة والتاجر المصري - صديقه - لنشتري الجبنة الطيبة، وفي سيرنا العشوائي، ونظري ينتقل من واجهة إلى واجهة، ألتقط بذهني صوراً سريعة متلاحقة للقاهرة وتوقفت لأشتري سواراً أثار إعجابي، وناداني التاجر المصري، بصوت مرتفع: انظري، هناك، أرأيت هذا الرجل إنه

نجيب محفوظ، ولم أصدق قلت متلهفة: أين هو؟.. وأشار بيده إلى الرجل إلى معلمي، إلى مبدع الثلاثية وأولاد حارتنا، وخان الخليلي، ورأيته، وتحوّلت إلى إحساس واحد. نسيت كل شيء، ما عدا إحساساً ثقيلاً، راسخاً، ساطعاً أني في حضرة كاتب أسرني وتلمذني من حيث لا يعرف وكدت أطير إليه لولا أن الرجلين اللذين برفقتي نبهاني لإشارة المرور، وانتظرت الإشارة كأني أنتظر دهراً، وطرت إليه وأنا أتقدم الرجلين، وخفق قلبي. والتاجر المصري يعترض طريق الكاتب الكبير ويستأذنه في التعرف به، ورحب بنا الكاتب العملاق بتواضع أذهلني، وحين صافحته أحسست أني أنال وساماً كبيراً لا أستحقه، وأحسست أنني سأبكي في حضرته تأثراً وانفعالاً وددت لو أخبره كم أنا مفتونة بكتبه وكيف قرأتها كلها، وكيف أحفظها كأقدس ما عندي، وطلبت إليه لو يسمح ونتصور معاً، ورحب بفكرتي والابتسامة لا تفارق وجهه. كان يحمل أوراقاً بين يديه. وعرفت أنه يذهب كل صباح إلى فندق يجلس ويقرأ ويكتب ويجتمع بأصحابه، ويرحب بكل من يود التحدث إليه والتعرف به، وصوّرنا التاجر، وقلت لنفسي هذه الصورة من صور العمر التي سأحتفظ بها باعتزاز مدى حياتي، ومدّ لنا الرجل العظيم يده مودّعاً، وهو يقول: فرصة سعيدة يا أفندم.

لو خيّروني هل تزورين الأهرامات أو المتحف أو قصر الملك فاروق. أو.. إلى ما هنالك من المغريات، أم تلتقين الكاتب الكبير نجيب محفوظ، لأجبت دون تردد إنني أتمنى أن ألتقي الكاتب الذي جعلني ببساطة أدور في فلكه وأفتتن بأسلوبه وشخصياته وأفكاره، ومن سوء الحظ أن الفيلم احترق، والصورة التي كنت أتمناها بشوق كبير لم تنجح واحترقت.. وحين عدت من الرحلة وسألوني

بفضول: إيه حدثينا عن رحلتك، أول ما تحدثت عن لقائي بالكاتب نجيب محفوظ. كنت أتمنى لو امتلكت الجرأة وحكيت لمعلمي عن هاجسي في الكتابة، وكنت أتمنى لو أعرف رأيه بما أكتب وأسمع نقده لقصصي، لقد صرت أعرف وأفهم وكيف يتجاوز الإنسان ذاته ويتحول لرمز يؤمن به الملايين، وهؤلاء المبدعون الخالدون بكتبهم وآثارهم هم البناة الحقيقيون للإنسان. إنهم المنارة التي نهتدي بها والتي نتحلّق حولها، وبعد عام من رحلتي إلى مصر، وحين سافرت إلى باريس لأزور أخوتي وبعد مسافرة في القطار السريع من باريس إلى فيشي، تنبهتُ إلى أن رجلاً فرنسياً يجلس مقابلي يقرأ باهتمام كتاب Le Chateau de plaisir (قصر الشوق) لنجيب محفوظ، وقلت لنفسي إن الترجمة ليست دقيقة كثيراً لأن كلمة شوق أكثر حميمية من كلمة سرور. وكان الرجل مستغرقاً في القراءة. وكم شعرت بالفخر والاعتزاز وأنا أرى فرنسياً عادياً غارقاً في قراءة كتاب قصر الشوق لكاتب مصري عربي، صار كاتباً عالمياً، وبعد أكثر من ساعة، وحين أغلق الفرنسي الكتاب ليسرح بنظره من نافذة القطار، سارعت لأسأله هل يعجبه الكتاب: وبوغت بسؤالي المفاجئ، وقدمت له نفسي على أنني عربية سورية، وأجابني إنه معجب كثيراً بنجيب محفوظ وإنه كان سارحاً في شخصية ياسين الابن الأكبر لأحمد عبد الجواد، وكم فرحت وأنا أسمع الفرنسي يلفظ اسم أحمد عبد الجواد بطريقة حلوة مضحكة، وقال لي إن نجيب محفوظ بارع في تصوير المشاعر الإنسانية وفي التحليل النفسي.

صاحب السيادة

هذه صورة صاحب السيادة تملأ شاشة العرض أمام عيني، مظهره الوقور، جبهته العريضة المخططة بالتجاعيد، لحيته الفضية المقصوصة جيداً، وابتسامته التي يعتقد أنها تنشر السلام في داخل النفوس المضطربة، ويداه المقوستان المتخذتان أبداً وضعية الاستعداد لتلقي القبلات، وتلك الميدالية الذهبية الضخمة التي ترتاح على مقدمة كرشه.. وهذه أنا أجلس على الكرسي المعتاد أحكي له خيبة زواجي وحياتي، وأتأمل الأيقونات الساحرة، وأستنشق رائحة خشبها المختلطة مع رائحة البخور، ويستقر نظري على السجادة الحمراء، فلا أتمالك، رغم تعبي من الإعجاب الشديد بها... وتتشوش فجأة شاشة العرض وتلتمع كتابة فضية أمام نظري، سنة سنتان ثلاث سنوات، أربع سنوات، وأجد نفسي بعد أربع سنوات، أجلس على الكرسي نفسه في مكتب صاحب السيادة، وأتأمل السجادة الحمراء ذاتها، واشم بعمق رائحة خشب الأيقونات والبخور، وتصيبني هذه الرائحة بخدر لذيذ.. بعد أربع سنوات أجلس في المكان ذاته، لكنني امرأة مختلفة، كنت قد نجحت في تحويل قوة ضياعي وآلامي إلى حب للحياة ورغبة شديدة في تعويض ما فات، وصار منظر صاحب السيادة الوقور يحرّض فيّ شعوراً بالنعاس والاسترخاء، وأخذت أفكر به كشخص، ترى كيف هي طباعه وأخلاقه، وللحظة تساءلت ما علاقتي به، وكيف كنت أفضل مشاكلي الخاصة أمامه، عجباً كيف لم يخطر لي هذا التساؤل من قبل؟

ابتدأ كلامه بابتسامته اللامعنى لها، والتي كانت تستفزني فيما مضى، وسألني عن حال الصغيرة، وكم صار عمرها، وحين أجبته إنها أكملت سنواتها الأربع، ابتسم قائلاً:

– ما شاء الله، ما شاء الله، لقد صارت صبية.

ووددت لو أقول له: يا إلهي كم أحسك ممثلاً.

ومسّد لحيته الفضية، وسألني: لم تسأليني لماذا أرسلت في طلبك؟

ما كنت أهتم أبداً لمكالمته والموعد الذي حدده لي، ذلك أني قررت أن أعيش وألا أتساءل بعد، ماذا عسى الأيام تخبّئ لي؟

عاد يتأملني بعينيه التي يعتقد أنهما تسبران أغوار النفوس وبواطنها، ولو كانتا كذلك لاستطاع أن يقرأ كم صرت مختلفة خلال هذه السنوات، سنوات القحط كما يحلو لي أن أسميها لكنه قال: لقد زارني زوجك منذ أيام، وأخبرني أنه على استعداد أن تفتحا صفحة جديدة في حياتكما. وسكت متأملاً وقع كلامه في نفسي: معتقداً أن خبراً كهذا سيطيّر صوابي من السعادة والفرح.

واستمر يتأملني بابتسامته اللامعنى لها. وأحسست أني أكاد أنفجر من الضحك، وقلت له حابسة ضحكي متصنعة السعادة. أحقاً، أحقاً زارك يا سيدي؟!

وكأنه توقع سعادتي، فقال بسرور: أجل، وقد لمحت عنده ميلاً للعودة إليك، بدا منكسراً!

ورددت بسخرية لاذعة لم يلحظها سعادته: منكسراً:

– أجل، فأرجو أن تكوني حكيمة يا ابنتي وتفكري جيداً..

وتابعت بنفس اللهجة: أفكر جيداً؟

– طبعاً، والرجل ندم، ويريد أن يبدأ بداية جديدة.

قلت بسخرية متزايدة لم يشعر بها إطلاقاً: بعد [illegible] أحسّ بالندم.

– أجل يا ابنتي المهم أنه أحس أخيراً بالندم، وكما لا تزالان شابين، والمستقبل أمامكما عريض.

– وهذه السنوات الأربع يا صاحب السيادة، أما تساءلت عما فعلت بي؟

وبدا أنه لم يفهم أو عاجز عن الفهم، فنظر إلي مستغرباً، وركّزت نظري في عينيه اللتين لم أبلغ عمقيهما، [illegible] وتخيّلت أنا دونكيشوتة الحالمة أني أقوم وأبدأ أرقص رقصة [illegible] أمامه، وأقول له:

– أنا آسفة يا سيدي، لقد خاب أمله وأملك. لقد وقعت في الحب بعد الهجر الطويل لكنني لم أتحرك من مكاني وقلت [illegible] ولكن أليست السنوات الأربع يا سيدي فجوة لا يمكن ردمها؟

– لا يا ابنتي، إن كل شيء قابل للإصلاح بالإرادة.

هكذا إذن، يا لسعادتك يا عزيزتي، بعد أن طُحنت، [illegible] وحفرت بك السنوات الأربع أخاديد لا تنتهي، وتحمّلت ما لا تقدر أعصابك على تحمله، يتحنن عليك الزوج، ويومئ إليك برأسه [illegible] يشير إليك بسبابته أن تعودي، هيا، اقفزي، اصرخي من الفرح أية سعادة لا توصف هذه! أية سعادة تشبه النوبة العصبية الهستيرية، لقد رضي عنك الزوج أخيراً، رضي عنك سيدك [illegible] نفسي المسكينة، هذا ما يجب أن يكون هدف حياة كل زوجة تعسة رضاء الزوج، حتى لو كان هذا الزوج صعلوكاً، مريضاً، [illegible] منحطاً، لا يهم، إنه رجل، رجل...

ورددت بفتور: آسفة يا سيدي، لقد انتهى هذا [illegible]

نفسي.

– ولكن يا ابنتي فكري بالطفلة الصغيرة، فكري أنه يمكن أن يأخذها من أحضانك ذات يوم.

وضحكت وأنا أضع رجلاً فوق رجل وأجيب:

– المشكلة يا سيدي، أنني لم أعد أخاف، لقد تحررت من الخوف، وما أدراني قد يموت وقد أموت أنا، قبل أن يتمكن من تخليصي الصغيرة، ثم إن طفلتي حتى ذلك التاريخ تكون قد كبرت وغدت صبية وبإمكانها أن تفرض إرادتها.

وتأملني بعين ناقدة لا تحمل أي رضى عني، خاصة بعد أن بدأت أهز قدمي بلامبالاة.

وقال: أرى أنك تغيرت كثيراً يا ابنتي؟

ورددت بسخرية: أوه يا سيدي الإنسان يتغير دوماً.

قال محاولاً إثارة الهلع في نفسي: أخشى ألا يكون هذا التغيير لصالحك.

– ذلك ما ستبيّنه الأيام يا صاحب السيادة.

– كنتُ أتوقع أن تكون سنوات الهجر لصالحك.

وقاطعته: سنوات الهجر، أنت تقول سنوات، أنت ببساطة شديدة تجلس وراء مكتبك وتطلق حكم الهجر لزوجين في قمة نضوجهما وشبابهما، تقول لهما اهجرا بعضكما. وترميهما في فم الغول كما يقال: سنوات وسنوات، هلا تساءلت كيف سيعيش هذان الزوجان، أليس هذا وضعاً مثالياً للانحراف.

وكأنه أجفل من كلمة انحراف فقال: أعوذ بالله، ما بك يا ابنتي تتحدثين بهذه العصبية.

تخيلت أني أحكي لصاحب السيادة أنني عشقت رجلاً، وأتخيل

دهشته وردود فعله، فأنا لا أزال على ذمة رجل، لا أزال أحمل بجدارة لقب زوجة، لي زوج وهي تفصلني عنه أربع سنوات، لكنه زوجي وأنا زوجته، شيء مضحك مُقرف حقاً! وأتخيله يسكتني بحركة من يده ويقول لي: كيف تحبين رجلاً آخر وأنت على ذمة رجل، ألا تعرفين أنه لا يحق لك أن تعشقي.

وأتخيل أنني أجيب ببساطة شديدة: ما كنت لأستطيع أن أمنع نفسي يا سيدي: فهذا الحب ما هو إلا اختلاط للهجر المديد.

وأتخيله يجيب: اسكتي، لقد خُدعت بمظهرك الرزين، وقلت عنك امرأة عاقلة.

وأتخيل أني أضحك حتى تسيل دموعي: وهل الامرأة العاقلة يا سيدي، لا تعشق؟

فتتسع عيناه دهشة من كلامي الساقط ويقول: لقد صرت امرأة لامبالية، لا يرضى عنك الله.

وأتخيل أني أزم شفتي وأقول بسخرية لاذعة: أوه، لماذا يا سيدي، أليس الحب أرقى شعور في الوجود، بل إنه الشعور الوحيد الذي يميز الإنسان عن الحيوان.

فيفقد أعصابه ويقول: لم أسمع حتى الآن سيدة تحدثت مثلك، احمدي ربك أن زوجك لم يعرف أنك تعشقين غيره.

وأرد ببساطة: بل أظنهُ يعرف يا سيدي، فللحب رائحة فواحة، تشبه رائحة زهر العسل.

فيقطب ويبدأ الغضب يكسو سحنته الوقورة ويقول: زهر العسل.

– أجل يا سيدي، هل تود أن تسمع تحليلي لما تسميه ندماً عند زوجي ورغبة في الرجوع إلى عش الزوجية المقدس..

يصمت ولا يجيب....

فأقوم من مكاني وأدور أمامه وأقول: أؤكد لك يا سيدي أن زوجي لم يكن يمانع طول حياته أن أعيش لا معلقة ولا مطلقة، مجرد زوجة مسحوقة أربي ابنتي أفضل تربية، رفضتُ النفقة وبذلك ارتاح من أي عبء مادي سيقدمه لي وللصغيرة، امرأة كالوقف، ألا يُقال هكذا، ولكنه حين شمّ رائحة الحب، حين أحس أن قلبي بدأ يخفق، جنّ جنونه، ليس لأنه يحبني، لا، أرجوك لا تسيء الظن يا سيدي، بل لأنه أدرك بعمق أني لم أعد ملكه، أني تحررت منه، والحرية تبدأ من هنا، وأشرتُ إلى رأسي، ثم من هنا، وأشرتُ إلى قلبي..

ويرد صاحب السيادة بصوت مرتجف: أنت امرأة مخيفة حقاً، كيف تزلّين وتعشقين رجلاً وأنت على ذمة رجل آخر...

وأتخيل أني أقترب من مكتب صاحب السيادة وأسند يدي على المكتب، وأقرّب وجهي من وجهه فيضطرب، ولكنني أهمس وأقول له وعيناي تحاصرانه وتمنعانه من الهروب: وكيف عاش هو هذه السنوات الأربع، ألم يعشق يا سيدي، ألم يتصل بنساء؟..

ويرد بحنق وقد أخذت أنفاسه تتلاحق: لكنه رجل...

وانتصب، وأنا أحس أن قامتي تتحول لشجرة سامقة تتمايل أغصانها بسعادة بالنسيم وأقول وكأني أغني أحلى حقيقة في الوجود: وأنا امرأة.

وتتسع عيناه دهشة: ولكن زلة الرجل ليست كزلة المرأة.

وأتمطى بجذعي أمامه وأقول: أوه لماذا يا سيدي؟

ويرد مقطباً وقد بلغ به الحنق حداً لا يحتمل: هكذا لأنه رجل.

وأتابع كلامي وأنا أدور في الغرفة، وألمس الأيقونات، واشم رائحتها الرائعة.

- أوه يا سيدي، لماذا على المرأة أن تغفر لزوجها مهما زلت قدمه وأخطأ، وزنى أما الرجل فلا يغفر للمرأة أبسط هفوة.

واختلجت أذناه حين سمع كلمة زنى وقال سامحك الله، سامحك الله، هل قلت كلمة زنى، كيف يمكن لرجل أن يغفر لزوجته إذا زنت.

وأرد ببساطة وأنا أقترب من أيقونة السيدة العذراء أحتمي بها: ولماذا عليها أن تغفر له ببساطة شديدة، إذا زنى هو، بل عليها أن تهديه للطريق السليم، وترجوه بكل طاقتها المتوارثة على الذل والخضوع أن يعود إليها.

وازدادت دهشته حتى خشيت أن يصاب بنوبة نقص تروية: سأصلي لأجلك يا ابنتي، سأصلي لأجل أن يهديك الله إلى الصواب.

وسألته وأنا أحس بسعادة لا أعرف سببها، وما هو الصواب يا سيدي؟

ويرد بآلية: أن تعودي لزوجك.

- لكنني لم أعد أحبه.

- لا يهم.

- كيف لا يهم، الزواج من غير حب، زنى أليس كذلك؟

فترتجف أذناه من كلمة زنى، يبدو أنه يتحسس منها، ويقول وقد نفذ صبره:

- أنت امرأة متعبة، متعبة للغاية.

فأتدلل وأقول: أرجوك يا سيدي، أليس الزواج من دون حب

زنى؟

وقطّب وهو يجيب: إذاً حاولي أن تحبي زوجك.

- أوه يا سيدي، كيف سأحبه، وقد أخبرتك أني أعشق رجلاً آخر؟

ويعود يسألني: كيف أحببتِ، كيف، وأنت على ذمة رجل آخر، هو زوجك؟

فانتفض، وأنا أحس أني أرمي الكرة فتصيب الهدف تماماً وأقول:

- لك أن تسأل سنوات الهجر يا سيدي، إلى اللقاء.

حين مدّ لي يده المُقدسة لأقبلها، عرفت أني ذهبت بعيداً جداً بتخيلاتي.

نظرت إليه بعينين جامدتين، وأنا أعود من رحلة الخيال البعيدة، إلى واقع مكتب صاحب السيادة، ومددت له يدي، وصافحته، وأحسست أنه امتعض لأني لم أقبّل يده، قال لي: فكّري، خذي راحتك في التفكير، وأنا بانتظار ردك، لكني أنصحك بالعودة إلى زوجك.

خرجت من مكتبه وشعور بالغربة القاسية يهدّني، ولم أتعرف على ذاتي أبداً، وتساءلت بجدية وصدق من أنا؟ هل تزوجت حقاً؟ وماذا أريد من الحياة؟ وكيف دخلت هذه الدوامة الغريبة هذه؟ وامتد إحساسي بالغربة إلى الناس في الطريق، والبنايات، فأحسستُ أني في مدينة غريبة لأول مرة أُبصر شوارعها وأبنيتها وسكانها، حتى شعور الحب الذي أزهر في نفسي بعد أربع سنوات من القحط والهجر، شككتُ به، هل أنا عاشقة فعلاً؟ أم أني واهمة؟ ألا تراني خلقت هذا الشعور ليعينني في احتمال جفاف

أيامي الذي لا يوصف؟: وكيف أؤكد لنفسي الآن أني أسيرة وهم أغذيه، حتى التبس الوهم بالحقيقة والحقيقة بالوهم، وأيهما أكثر حقيقة من الآخر، زوجي أم الحبيب!؟ ألم أخلق حبي معتقدة أنني بهذا الحب أنتصر على ظروفي، على انهيار أسرتي الصغيرة، على فشل زواجي، على خوفي الذي قارب حدّ الذعر من أن تضيع مني ابنتي حين تبلغ عمراً معيّناً، آه كنت أسير، وأنا لا أشعر أن قدميّ تلامسان الأرض كنت أحلّق على ارتفاع مترين أو ثلاثة من الأرض، لا أقترب من السماء، ولا أنزل إلى الأرض، بل أتأرجح بحركة لا تهدأ كالنواس.

وحين وصلت إلى البيت كانت صغيرتي تلعب، وهبت ترتمي في حضني، احتضنتها وأنا أحس أن دخاناً كثيفاً رمادياً يخرج من أذني وأنفي، وقلت لها: أنت الحقيقة الوحيدة التي أؤمن بها...

ترددت جملته الأخيرة في ذهني، خذي راحتك في التفكير، ماذا في هذه الجملة حتى أحسّها مبطنة، كثيفة، غريبة، وعرفت أن ما يؤرقني هي جملة خذي راحتك، ضحكت، في حياتي كلها لم آخذ راحتي كاملة في التفكير، كان علي أن أفكر دوماً وفق كومبيوتر سري دربوني عليه، لو أخذت راحتي في التفكير لما تزوجت هذا الإنسان أبداً، وأتساءل للمرة الأولى بجدية، لماذا تزوجته إذاً، هل خضعت لضغوط معينة، لا أبداً، بل على العكس. أهلي لم يروه مناسباً لي، صحيح أنهم لم يعارضوا بشدة، وتركوا لي حرية القرار. إذاً، لماذا تزوجته وأنا كنت فتاة ناضجة أكملت دراستي العليا وتجاوزت الخامسة والعشرين، وضحكت بسخرية لا لم أكن ناضجة، كانت جرثومة خبيثة تفتك بأعصابي هي جرثومة الخوف، ورغم محاولاتي الجادة للقضاء على هذه الجرثومة، لكني لم

أستطع، حتى أمهر الأطباء حين استشرتهم قالوا لي هذه الجرثومة مستوطنة منذ زمن بعيد بعيد في بلادنا، وكل الناس مصابون بها خاصة الفتيات.

هذه الجرثومة كان لها الدور الرئيسي في زواجي، وأعترف ببساطة أنني تزوجت خوفاً من عدم الزواج، خوفاً من التعنيس، وقد سمعتِ ذات مرة أن كلمة تعنيس مركبة من كلمتين هي عنَّ ونسَّ، ورغم أن هذا التركيب يثير الضحك في البداية، إلا أنه يلامس الحقيقة فعلاً وكنت أتأمل حياة العانسات، فأحس بضيق شديد، وأكاد أصرخ بصوت عال: حرام، هذا الكبت بكل وجوهه غير معقول. حتى أني تمنيت يوماً أن أكتب عن حالات العانسات، وكنت أتأمل تظاهرات الكبت في شخصياتهن، والعقد النفسية بكل أبعادها متكمشة في نفوسهن، وذلك الحقد المزمن على كل المتزوجين والعاشقين والمخطوبين، الذي يأخذ أشكالاً جميلة مخادعة وأحاديثهن الجنسية، والنكات الجنسية المبتذلة المقرفة، والتي تثير لديهن لذة وهمية، وسعيهن الدائم للحصول على أحدث أفلام الفيديو الجنسية وأفلام البورنو، وفي لحظات معينة كانت كل واحدة منهن على استعداد لممارسة الجنس مع عابر سبيل؟!

ليتني كنت أبالغ، لكن هذه الحالات أخذت بالازدياد، خاصة أن الزواج صار أزمة حقيقية أساسها اقتصادي، وماذا تفعل الفتيات حين يتحوّل الزواج إلى حلم مستحيل، أو صعب التحقيق، كنت أتساءل كيف ستعيش هذه الشريحة المتزايدة من الفتيات والشبان، وقد صار الزواج حلماً مستحيلاً؟ وهل ما زالت لتلك القيم القديمة سلطة عليهم؟! وهل يمكن أن أنسى العانس المتصابية التي رافقتنا إلى مصر، كانت حالة تستحق الدراسة فعلاً، نرجسية مريضة تحتاج

لعلاج، ولكن كم من الأمراض في بلادنا لا تُشخص أو تعتبر حالات طبيعية، كانت هذه العانس شابة جميلة تجاوزت الأربعين، وكل هدفها في الحياة قوامها وشعرها ومكياجها. كانت تمرض إذا ازداد وزنها زيادة طفيفة، أو إذا لاحظت تغيراً خفيفاً في بشرة وجهها، وكل حركاتها كانت مصطنعة، لفتاتها، صوتها، طريقتها في الكلام، حتى نسيت طبيعتها الحقيقية وتحوّل اصطناعها لكل شيء إلى طبيعتها الأصلية، وكانت تتعمد أن تجلس دوماً أمام المرآة، تراقب نفسها، كيف تشرب أو تدخن أو تتكلم، وكم عدد المعجبين بها في كل سهرة، وإن لم يحالفها الحظ وكان هناك مرآة في المطعم أو المكان الذي قصدته، كانت بين وقت وآخر تستأذن وتذهب إلى الحمام، لتتأمل نفسها في المرآة، وتضع طبقة جديدة من أحمر الشفاه، أو ظل الأجفان، وذات يوم من أيام الرحلة، آلمتها معدتها كثيراً، فاتصلت بي لأسعفها، ويبدو أنها لم تتوقع حضوري بهذه السرعة، وصلت غرفتها، كان الباب موارباً وسمعتها تتكلم، فلم أشأ أن أدخل لاعتقادي أنها تتحدث مع أحد في الهاتف، ولكني سمعت رغماً عني كلامها الغريب: أرجوك يا حبيبي، كفّ عن تقبيل يدي بهذه الطريقة، ألا ترى كم أنا مريضة، وأصابني الذهول، ماذا أسمع؟ ووجدتني أقرع الباب، فأتاني صوتها: تفضلي تفضلي. ودخلت فلم أجد أحداً، كانت تكلم نفسها وتتخيل أن حبيباً وهمياً إلى جوارها.

هذه حالة أو نموذج من العانسات قد لا يكون منتشراً بكثرة، لكنه موجود، كنت أتأمل العانسات اللواتي تذوب حدودهن وشخصيتهن وحقوقهن في الآخرين. وعادة أولاد الأخ أو الأخت، أعرف عانساً تعيش مع أخيها المتزوج، وقد تعلّقت بأولاده تعلقاً

أعمى، وكانت تفرح كثيراً حين يناديها أولاد أخيها ماما. كنت أحترم هذه الإنسانة المعطاء كثيراً، ولكنني كنت أتساءل: أليس لنفسها حقوق عليها؟ وهل يعقل أن تهب نفسها حتى النهاية لأولاد أخيها، ولم يكن يصعب علي تخيلها جدّة وقد ابيض شعرها وتجعّد وجهها وهي تجلس على كرسي تحيك الصوف لأحفادها، أقصد لأولاد أبناء أخيها، وهم بالمقابل سيتوددونها، ويسمعونها في أوقات فراغهم بعض الكلمات اللطيفة، ومن يدري فقد يديرون ظهورهم وينسون عمرها الذي ضاع في سبيلهم، ترى ألن تنتابها مشاعر عارضة بين وقت وآخر أن سنوات عمرها ذهبت هباء، وماذا ينفع هذا التساؤل بعد فوات الأوان؟!

ما بالي أتوه مع العانسات، كلا لستُ تائهة، ما أردت قوله أني تزوجت بهدف الزواج، كأن الزواج ضريبة لا بد منها، لم يكن الزوج مهماً بحدّ ذاته، المهم الزواج ثم الزوج. الخوف من عدم الزواج كان يثير في نفسي رعباً مخيفاً، عالجته بعلاج وحيد هو الزواج... ولم آخذ راحتي في التفكير كما طلب مني صاحب السيادة؟!

آه كيف سآخذ راحتي في التفكير الآن وقد تعقّدت المشكلة، فأنا لم أستطع أن آخذ راحتي في التفكير حين كنت مسؤولة عن نفسي فقط، لم أستطع أن أقضي على الجرثومة الوراثية التي عجز الأطباء عن القضاء عليها، الخوف، والآن هناك طفلة صغيرة أعبدها، لا أحس بطعم لحياتي من غيرها، إنها الأمل والفرح، وأحضرت ورقة وقلماً ورسمت خطاً طولانياً يقسم الورقة نصفين وكتبت في القسم الأول، طلاق وفي الثاني العودة إلى الزوج...

وحاولت أن أفكر، وأجد أي احتمال يغلب، لكنني بعد

لحظات كنت أمزّق الورقة.

آه، لو عدت، سأخسر نفسي، وسأقضي على شعلة الحب النابضة في قلبي...

ولو طلّقت، ستظل حبيبة قلبي موزعة هنا، وهناك، وهي نفسها تقول هنا وهناك، كأنها تعيش في عالمين مختلفين متناقضين، لا صلة بينهما.

ولكن، ألا يجب أن أضحي في سبيل ابنتي؟ والحب المحرّم الذي تفجّر في داخلي رغم كل المحرّمات ماذا أفعل به، أوه لأخنقه كما نخنق أشياء كثيرة جميلة في حياتنا.

ولم أستطع أبداً أن أحل الصراع، وفجأة أحسستُ أن اللامبالاة، وتعليق الأمور هما الحل الأنسب، فلتستمر أيامي بهذا الشكل لا طلاق ولا عودة، وتذكرت كم احترق قلبي طوال هذه السنوات، وكم بكيت البيت الصغير الذي يعني الأسرة والحماية والاستقرار، وكم حزنت على الأثاث، وأغطية السرير، واللوحات، و.. أشياء وأشياء كلها ضاعت وضاعت معها الأحلام. طز في الزوج والزوجة والأثاث والبيت، فالسنوات ضاعت من عمري ولن تعوّض أبداً، فلتتعلق معي يا زوجي الوهمي الهزلي، فأنت أيضاً لست مُعلقاً ولا مُطلقاً، ألا ترى أن الحياة لعبة مسلية حقاً، ولكني أحب أن أستسمحك أو أقدّم لك اعتذاراً بسيطاً، فأنا سقطت في بحر الغرام غير آسفة يا عزيزي!

جنون

لم أكن أعلم أني سجلت فيلم صاحب السيادة وفيلم جنون على نفس الشريط، فما كاد ينتهي فيلم صاحب السيادة حتى عمّت الشاشة كلمة زرقاء سرعان ما تحولت إلى كلمة بيضاء هي كلمة جنون وأجد نفسي أسرع الخطى في الشوارع المعتمة، والبرد قارس، أتحداه كما أتحدى مجتمعاً بأكمله، ينتظرني في سيارته في تلك البقعة من الشارع المعتمة تماماً وغير المنارة بأي مصباح. أميّزه في الظلام، فهذه البقعة المظلمة والتي سميناها (العتمة)، كانت مكان لقائنا. أفتح الباب الخلفي للسيارة وأرتمي في المقعد الخلفي، ينطلق مسرعاً حالما أغلق الباب الخلفي ورائي، ألتقط أنفاسي حتى يبتعد خارج ازدحام المدينة، ونبدأ الكلام بكلمات الشوق المعتادة والتي مللتها، وصرت أخفي عنه قلقي فإلى متى سأظل أقول له إلى أين؟ ومتى ستحل مشاكلنا وابنتي هاجسي، والطوق الجميل الملتف حول رقبتي، ولكني أموت لو حاولت نزع هذا الطوق، وهم يستغلون هذا الطوق ويهددونني بالشنق، قلبي مقسوم نصفين هو وابنتي، وأنا تائهة بينهما، ولكني قلت له ذات يوم: سأدوس على قلبي لأجل ابنتي، فهي صغيرة وتحتاجني وأحسها قطعة مني.

وقال بألم: وأنا أتضحين بي؟

قلت وقد بلغت قاع الألم: أنا أضحي بنفسي.

كنت أعلم بحدسٍ غريب أن لقاءاتنا كلها ستتحول إلى ذكريات، وكان هذا الشعور قوياً لدرجة آمنت بحقيقته، وفي كل مرة كنا نجلس في المقهى المنسي البعيد، كنت أطيل النظر إليه

وأحاول أن أحفظ ماذا يلبس، وماذا طلبنا، بيرة، قهوة، تبولة، فراريج مشوية، وأحاول أن التقط صوراً له وللمكان أتركها مخزونة في ذهني، كنت أراقب ديكور المكان، الستائر، الموسيقى، حالة الجو في الخارج، هل كان ماطراً، هل حملنا مظلة، هل جلسنا على ضوء الشموع بسبب انقطاع التيار الكهربائي، كنت أجمع أقصى ما أستطيع من تفاصيل الصور لأني أحس أنها ستصير ذات يوم ذكريات، وسأستحضرها بذهني، فلتكن الصور كاملة إذاً، وحين كان يوقف السيارة ونترجل منها، ونسير في الطريق الزراعي الضيق نشم رائحة الأرض الخالدة، ونستمع لنقيق الضفادع، وعواء كلب بعيد، ونتوقف بعد أن ينتابنا إحساس واحد أننا نتوحد مع الطبيعة والسماء والنجوم والقمر والكون كله، وأننا جزء صغير من الكون الكبير، ويضمني بين ذراعيه، فأحاول جاهدة أن أعيش اللحظة، وأن أستسمح ابنتي الصغيرة، ولكني كنت أنظر دوماً إلى السماء دامعة العينين وأحس أني أودعه، فتصير مشاعري أرق وأسمى، وأمسح على شعره بحنان، كأني ألمسه اللمسة الأخيرة، وأتحسس بشرته براحة يدي، وأنا أسجّل الصورة تماماً الطريق الزراعية الضيقة، والأشجار الباسقة السوداء، كأنها وجدت لتحمينا وتخفينا عن الأنظار، وأصوات الحشرات والحيوانات، ونبضات قلبه متحدة مع نبضات قلبي، والعتمة التي تملؤنا رهبة، القبة السوداء المرصعة بالنجوم يتوسطها قمر شاحب، وأنا وهو وجودان، متلاصقان، عاشقان، هاربان من الزمان والمكان، فاحفظ يا عقلي بين تلافيفك جيداً تلك الصورة الجميلة، فذات يوم ستسترجعها على مهل.

لا أدري لماذا أكتب عنه والقلم يرتجف بيدي لكأني أغوص في الحرام؟ مع أني متأكدة أن لكل إنسان تجاربه، ولكن أن تتحدث

امرأة عن تجاربها فهذا عار، أذكر كتاب العاشق للكاتبة الفرنسية الشهيرة مارغريت دورا، تحكي فيه عن قصة حب عنيفة عاشتها وهي في الهند الصينية مع رجل صيني، وكان عمرها وقتها خمسة عشر عاماً أو أكثر قليلاً، لقد غاصت مارغريت دورا في تفاصيل علاقتها مع الرجل الصيني ولم تخجل من شيء، فالتجربة الصادقة يجب أن تُقال والإنسان مرفوع الرأس، إن أكثر ما أثار إعجابي في كتابها، جرأتها، وحسدتها على قوة شخصيتها وقدرتها في تعرية نفسها دون خجل وكذب ومواربة، دون استعمال الرموز، والنور الخافت والأسماء المستعارة. دون أية محاولات للتجميل، ولكن مجتمعها يساعدها، صحيح هناك كاتبات عربيات تحدثن عن تجاربهن الشخصية، لكنهن لم يصلن أبداً لما وصلت إليه أية كاتبة أوروبية من الصراحة والبساطة في الطرح، وفي عرض أدق خصوصياتهن على القراء...

أنا لا أقصد أبداً أن عرض الخصوصيات غاية بحدّ ذاته إطلاقاً، ولكن هناك أموراً جوهرية يجب أن نطرحها على بساط البحث بأمانة ودقة لكننا نخاف ونخاف، لأن كلاً منا يحمل سوطاً ليلهب به ظهر الآخرين، ولكني سأحاول أن أكون صادقة وأتحمل النتائج، فالصدق هو أساس الشرف والأخلاق، وسأحكي عن تجربتي كاملة لأني واثقة أنها ستفيد كثيرين، ولو أنها ستعطي التافهين والفضوليين سعادة خبيثة.

لقد أدركت متأخرة جداً، أن اختياري لهذا الحبيب لم يكن حراً أو واعياً، كان اختياراً ناجماً عن قهر، وشعور قاسٍ بالظلم، ولا إنسانية أيامي وسنوات شبابي، لقد بقيت معلقة سنوات بين السماء والأرض، لست من سكان الأرض، ولا من أرواح

السماء، ويبدو أن الكل اعتاد على وضعي هكذا. امرأة في ريعان شبابها بحالة هجر لا محدود، تعيش حياة قاتلة روتينية، تحرم من أبسط حقوقها. محظور عليها أن تحب وتعشق، وبعد سنوات من الصراعات القاسية والثورات الطاحنة التي خضتها مع نفسي، قررت في لاشعوري أن المتنفس الوحيد لي هو الحب، وكما كنت ضحية لقوانين لا تفتح باب الحوار، بل تطلق قوانين لا إنسانية ولا معقولة، هكذا كان قراري تعسفياً بشأن الحب، لم أناقش حقيقة هذا الحب، ولم أدرس جيداً شخصية الحبيب، لقد كنت محمومة، وأظن أني لو كنت مرتاحة الأعصاب، ولا أحس أن روحي تئن تحت قهر وكبت طويلين، لما اخترت هذا الحبيب أبداً، لأننا كنا مختلفين، متنافرين، كشحنتين متماثلتين، كانت شخصيتي بعيدة كل البعد عن شخصيته وتطلعاته، ففي حين كنت أعشق كل ما هو روحي ويمت لعالم الفكر والإحساس، من أدب وفن وعلاقات اجتماعية راقية، يحكم فيها الوجدان والقيم، كان هو، يعتبر كل البشر بما فيهم أولاده وأنا مسخّرين لمتعته، يستمد من حبنا له واهتمامنا به، زاداً ليتعملق، وليتضخم عنده جنون العظمة، حتى وصل به الأمر إلى مرض مستعصٍ غير قابل للشفاء هو عشق الذات، واعتبار نفسه فوق مستوى البشر، كان يعشق حركاته وشكله وثيابه وأحذيته، وفي لحظات عودة وعيي المتأخرة، خطر لي لو أسأله، من يدخل السرور إلى قلبه أكثر أنا وأولاده، أم أحذيته؟ وكنت متأكدة أن الجواب الحقيقي والأقرب للواقع، أن أحذيته تشعره بالبهجة والسرور أكثر من العلاقات الإنسانية الدافئة، ذلك أنه لم يكن قادراً على الحب وهو مشبع بعشقه لذاته، والذي لا يحب لا يقدر أن يعطي، وعرفت فيما بعد كيف كان أولاده يعانون قهراً نفسياً صعباً

وقاسياً بسبب نرجسية والدهم وأنانيته، وهم في بداية مراهقتهم يتفرجون على أب يفترض أن يكون مثلهم الأعلى، كيف يراهق ويعشق فتيات صغيرات بعد أن سبّب لزوجته نوبات حادة من الانهيارات العصبية.

إلى أي حدّ كنت مضللة حتى غابت عني كل هذه الحقائق الأساسية الصريحة، لقد سبق وقلت إني كنت محمومة، والحمى تدفع إلى الهذيان، فبعد أن وجدت أن السنوات تضيع بسهولة في حياتنا، وأن مشاعر القهر والكبت متأصلة عميقاً في نفوسنا، وكل الناس ينفسون عنها بطرق غريبة أولها الثرثرة والنميمة واختلاق الأخبار الكاذبة، أو بحياة مزدوجة ظاهرياً يتصرفون وفق قيم ومبادئ يعيشون عكسها في السر. أحسست أني أصاب بدوار، وأنه يستحسن أن أشرب من نهر الجنون، وهكذا كان الحب الأهوج هو الثقب الوحيد في كرة البخار المتكاثف التي أعيش داخلها، هذا الثقب الصغير كان يسمح للبخار السام أن يخفف ضغطه عليّ، لكني لم أتساءل هل سيوصلني إلى جزيرة الأمان والسعادة، أم أنه يحفر لي كميناً يهددني بالدمار.

أبــي

هذه المرة لم أسحب ورقة من علبة السنين، لأن أبي لا يمكن أن يتحول لذكرى محبوسة في علبة السنين، إني أعي وجوده ومحبته في كل لحظة، إنه أبي الحبيب ليس لرابطة الدم بيننا بل لأنه بكل بساطة كان أباً مثالياً، وإنساناً فاضلاً، واسع الأفق، صاحب نكتة، ذكياً، اجتماعياً، حساساً، وكانت له محاولات في كتابة الشعر، وقد قرأت له ذات يوم قصائد غزل، رقيقة وحلوة لحبيبته التي تزوجها ـ أمي ـ وأعتقد أن زواجه الذي توّج به حبه الشديد لأمي، جعل موهبة شعره تتقلص، كذلك مشاغل الحياة الرتيبة ومسؤولية أولاده الثلاثة، الذين كان يريد لهم أن يعيشوا بأفضل مستوى. لا أظن أن هناك أباً قدّم لأولاده ما قدّمه أبي، ليس من النواحي المادية بالطبع، فهناك كثير من الآباء يغرقون أولادهم بالمال معتقدين أنهم يقومون بواجبهم على أفضل ما يكون.

لا يمكنني أن أنسى كيف درس معي الرياضيات في صف الكفاءة، وساعدني في فهمها وهو أستاذ اللغة العربية، لقد كان يفتح كتاب الرياضيات وإلى جانبه ورقة وقلماً ومسطرة يقرأ ويحل المسائل كتلميذ مجتهد، وكنا نحاول معاً أن نحل المسائل الصعبة، واستطاع أن يحلّ كل المسائل الصعبة والمعقدة، هناك صور تنطبع في الذاكرة تتكثف فيها كل المشاعر والأحاسيس الغنية المرتبطة بالماضي البعيد، ومن أكثر الصور التصاقاً بذهني، صورة أبي متربعاً في سريره، وقد مسّد بطانية السرير فوقه جيداً. وأنا أجلس على طرف السرير مقابله، وبيننا وسادته المربعة الكبيرة، نضع عليها

الكتب والدفاتر، يشرح لي ما صعب علي فهمه في اللغة العربية والفرنسية والرياضيات والفيزياء، لقد استمر يجتهد، ويدرس معي ـ برغبة صادقة منه ـ حتى الصف العاشر، بعدها أعفيته من باقي المواد، ما عدا اللغة العربية تخصصه، ورغم كوني ذكية ومتفوقة بنظر الجميع، إلا أن إضاءة ذهني من الداخل وتنوّره كانا يعودان لأبي، لقد فتّق في نفسي حب القراءة، .صحيح أن القراءة كانت تطلق خيالي، لكنني كنت أصغي إليه جيداً. كيف كان يناقش القصص التي نقرؤها معاً، ويحلل شخصياتها بذكاء ودقة، كنت أحس كيف ينير لي الدروب المعتمة، ويفتح مداركي على فضاءات واسعة، تخفق فيها روحي كحمامة حرّة في محاولاتها الأولى للطيران، أستطيع الآن بعد أن عجنتني محبة أبي وشكلتني، وبعد أن أولاني كل اهتمامه وثقافته، وفجّر مواهبي، أستطيع أن أقول بفخر أن أبي إنسان عظيم، وإنه أعطى ذاته كاملة لأولاده، وإنه صاحب قلب كبير، يحب كل الناس. كان نجماً لامعاً، وفي مهنته كأستاذ لغة عربية كان فناناً متميزاً، أذكر فيما بعد حين كان يرافقني لأتمم معاملاتي في تسجيل الاختصاص في الطب، وفي الترخيص بمزاولة المهنة، وكيف كنا نتوه بين الأوراق والمعاملات والموظفين، كيف كان أبي يُقابل بكل حب واحترام ومودة من قبل كل الموظفين، وبعضهم وصل لمراتب عالية جداً، كانوا جميعهم ـ تلامذته ـ يتذكرون الأستاذ القدير، ولا ينسون أفضاله عليهم، وكان أبي يحس بسعادة غامرة وهو يقول لي: هذا أعظم ثمن يتمناه مدرّس.

لا أعرف إن كنت على حق في اعتقادي أن أبي ظُلم ولم تنصفه الحياة، ليس لأنه كان يتيم الوالدين وهو في السابعة من

عمره، وأن خالته الخرساء تولّت تربيته هو وعمي الذي يصغره بأربع سنوات، لا ليس لهذا السبب، بل لأني اكتشفت فيما بعد الفنان المسجون في أعماق والدي، وأنا مؤمنة أن المواهب لا يمكن أن تنمو في جو هادئ مستقر لا عواصف فيه ولا رعود ولا بروق، لا قلق، ولا قهر، حتى ولا فرح طاغ يزلزل كيان الشخص، كانت أسرتي نموذجية، رائعة في الحب والتفاهم والانسجام بين ربّيها ـ أمي وأبي ـ أمي الذكية الهادئة، المتفهّمة، الفيلسوفة، - كما كنت أسمّيها ـ لأنها درست الفلسفة وتفوّقت فيها، في هذه الأسرة المثالية، المتحابة، المستقرة عاطفياً والمرتاحة مادياً، كان سلطان الشعر يفرّ هارباً من أبي، وقلق الإبداع لا يجد مكاناً له في حياة أبي المنصرف كلياً لتأمين احتياجات أسرته، إننا ندين له ـ ولأمي ـ إخوتي وأنا بنجاحنا العلمي والمهني لكني بقيت دون إخوتي أفتش عن الفنان المسجون أو النائم في أعماق أبي، وكنت أتساءل: إلى أي حد يتحمّل أبي مسؤولية ضياع الفنان في داخله؟

آه!. إلى متى سنظل ندور حول الحقيقة، ونخاف أن ندخل قلبها، فإن تتحدث امرأة عن تجربة عاشتها يُعد عاراً وفضيحة، ولكنني مؤمنة أن تجربتي الشخصية هذه ستعلو فوق الثرثرات والشبهات والتفاهات، وستضيء في سمائنا مثل نجم حقيقي لا يخبو نوره، بل يظل ساطعاً كاشفاً بشاعة الظلام وفضائحه الكثيرة المختبئة في طيّاته، لقد مررت بتجربة قاسية، ليست تجربة حب، وليست حالة ضياع، وليست تضليلاً، لقد عشت أبعاد كلمة مدمّرة كادت تسحقني هي كلمة منبوذة، فقد تحوّلت ـ وعلى مدى أشهر ـ إلى إنسانة عاقّة، منبوذة، واختبرت تماماً مشاعر الابن الضّال،

عرفت كل دهاليز كلمة النبذ الرهيبة، غصتُ في هذه الحالة وتقمّصتها وكنتها أنا نفسي، أنا ابنة العائلة النموذجية المثالية، وضعتني الظروف عامدة وساخرة في خانة النبذ الاجتماعي، ذلك لأن ظروفي تراكبت وتراكمت لتدمغني شيئاً فشيئاً لأصير امرأة متمرّدة، لأكشف النقاب عمّا نود إخفاءه، لأنني فضحتُ من حيث لا أدري أخلاقنا الشكلية الزائفة، وفضائحنا التي اعتقدنا أننا سترناها جيداً بألف حجاب وحجاب.

وقبل أن أتحدّث عن حالة النبذ الاجتماعي القاسي الذي عشته أحب أن أذكر جملتين رائعتين للسيد المسيح الأولى: من كان منكم بلا خطيئة فيرجمها بحجر.

والثانية وأحسها تكمّل الأولى: ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه.

المنبوذة

لشدّ ما أكره هذه الورقة، وأتمنى لو أمزّقها، لكني رغم كرهي لفيلم النبذ، إلا أني لا أستطيع أن أمزّق الشيفرة الخاصة به ــ المنبوذة ــ لذلك أتمدد مجدداً على الأريكة وألصق الورقة المشؤومة التي تحمل كلمة واحدة المنبوذة، وأبدأ بالتفرّج بعينين دامعتين رغماً عني.

ما كنتُ أتخيّل أن يصيبنا داء الخرس ــ أبي وأنا ــ ما عدنا نتبادل الكلام أبداً إلا عند الضرورة القصوى، ودائماً كنا نقول الكلام الذي لا بد منه دون أن ننظر إلى بعض، ذلك أن عيوننا كفت عن الحوار بدورها، وبذلك اكتشفت أن لغة العيون هي الأساس في أي حوار بين البشر، وأن الكلام من دون تعبير العينين يكون ناقصاً، لقد عشتُ أربع سنوات، أقصد سنوات الهجر في بيت واحد مع أبي دون أن تلتقي نظرتنا مرة واحدة في السنة الأخيرة، وهذه الحقيقة تثير دهشتي أكثر مما تثير ألمي، لأني أتخيل أنه لو صمم شخصان يعيشان في بيت واحد ألا تلتقي نظرتهما لشهر أو شهرين، فسيعجزان فكيف لسنة أو أكثر، ذلك أن داء الخرس كان من أهم علاماته تنافر العينين وهروبهما من اللقاء والمواجهة، لأن نظرة واحدة سريعة تكشف أعماق النفس وأسرارها.

ما كان داء الخرس ليصيبنا لو كنا نعيش في باريس مثلاً، ذلك أن جرثومة الخرس تحب التفشي والانتشار في مجتمعنا، وهي لا تعيش إلا في القشرة أو البطانة، لأن الناس هنا يغلفون حياتهم

وتصرفاتهم بقشرة دوماً كي يتجنبوا الوضوح والصراحة والطبيعية، أو يبطنون كلامهم دوماً بمعانٍ وإيماءات ورموز، لقد زحف علينا هذا الداء دون ضجة، فأخذنا نتباعد أبي وأنا، وصرنا نصطدم، ثم توقفنا عن الحوار، وتنافرت عيوننا، وأصابنا داء الخرس، وكنت أهرب من مواجهته في ممرات البيت وغرفه، وتحوّلت قسماته المرحة المنبسطة المبتسمة لقسمات عابسة مقطّبة. وازدادت سمرة بشرته وكثرت تجعدات جبهته، وصارت شفتاه مزمومتين منطبقتين أبداً، وأخذ يمضي القسم الأكبر من وقته في فراشه، يقضي ساعات يلعب بالورق مع نفسه ويستمع إلى المذياع، وبين وقت وآخر كان يطلق تنهدات يائسة طويلة.

وأنا بدوري تغيّر شكلي، صرت أنظر في المرآة فأرى صورتي نفسها، عيني، فمي، شعري، هذه هي تقاطيعي نفسها، لكني لا أشبه تلك التي كُنتها قبل أن تصيبني الحمى وداء الخرس، لقد تحوّلت من إنسانة متصالحة مع المجتمع حائزة على رضى الوالدين إلى متمردة منبوذة، صحيح أنني كنت متألمة كثيراً من النبذ الاجتماعي الذي عشته، لكني لم أعرف كيف أتراجع أو أفتح باب هدنة وصلح مع الناس ومع أبي بالدرجة الأولى.

أبي الذي كان طول عمره متصالحاً مع ناسه ومجتمعه مسايراً للأخلاق العامة والتقاليد صحيح كنتُ أسمعه يناقش وينتقد الكثير من المظاهر الخاطئة في سلوك الناس وتفكيرهم لكن ذلك كان مجرد كلام، فلم يصطدم أبداً في حياته مع أحد، وظل الابن البار والرجل المحبوب في مجتمعه، ولم يخطر بباله يوماً أن ابنته البكر التي تشبهه أكثر من بقية أولاده سترفع راية العصيان والتمرد يوماً، وتصير رغماً عنها الابنة الضالة. لم يخطر ببال الأستاذ القدير الذي بنى سمعته

الحسنة على مدى ثلاثين عاماً، أنه سيُطعن من قبل ابنته البكر التي عشقت رجلاً وهي على ذمة رجل آخر، صحيح أنه يعرف بأعماقه أن ابنته عاشت سنوات لا هي معلّقة ولا مُطلقة، وكان يمكن أن يناقش وضع امرأة مثل ابنته بكل بساطة وبذهن منفتح متحرر، ويجد لتلك المرأة مئة مسوّغ، ويدافع عنها أنها بشر من لحم ودم، بل أن تعلقها برجل آخر ما هو إلا رد فعل عنيف لسنوات القهر والمشاحنات والظلم، وكان يمكن أن يقول إن هذه المرأة دُفعت دفعاً لهذا السلوك، وإنه من الخطأ أن يهجر زوجان شابان بعضهما لسنوات، وأن هذا الهجر اللاإنساني يمهّد الطريق للخطأ.

نعم، كان أبي سيتكلم هذا الكلام وأكثر منه، وأستطيع أن أتخيله كيف يجلس يشد انتباه الساهرين والمستمعين، أما أن تكون تلك المرأة ابنته فهنا المصيبة الكبرى، لأن ابنته هي امتداده، هي شرفه وسمعته ومكانته في المجتمع، وكنتُ أحس بظلم كبير حين يربط الناس بين الأهل وأولادهم، فقد يكون الوالد سيئاً والابن طيباً وأخلاقياً أو العكس، فلماذا يُحاسب الواحد بجرم الآخر، ولماذا تحوّل والدي إلى إنسان كئيب بسبب سلوكي.

لقد راقبتُ نفسي في موضع التجربة. كيف تنهال علي أحكام المجتمع كسياط لا ترحم تنهال على من يعصيها دون رحمة أو منطق ودون مناقشة. ورغم أن كل الناس يعرفون ازدواجيتهم ونفاقهم وكذبهم وغشهم، إلا أنهم يحسنون مداراته وتغليفه بقشرة سميكة عاتمة، وتبطينه ببطانة لا تشف، أما أنا التي رفضت القشرة والبطانة وعشت بعفوية البلهاء أو الفنانين البوهميين، أرسم إيقاع حياتي معجوناً بالنور والشمس وهواء الجبال العالية، فقد أرعبتهم وأثرت مخاوفهم لأنهم شموا رائحة خاصة يخشون أن تقتلهم، رائحة الحرية.

لقد صعب على أبي كثيراً أن يكون أباً لامرأة ذات تجربة، امرأة ذات شخصية متميزة مختلفة، لها فهمها الخاص بالحياة وإيمانها العميق بمبادئ أنشأها عليها هو وغذّاها في روحها، الحرية والحب وكره الزيف والنفاق والخداع، ولم تفعل شيئاً هذه الابنة الحالمة الدونكيشوتية سوى أنها تشربت هذه المبادئ والقيم، وتمثلتها في جسدها وأفكارها.

لم أكن أعرف أن الأهل حين يربون أولادهم على مبادئ معيّنة، يريدون أن يظل كلامهم كلاماً، لا ينزلون به إلى ميدان التطبيق، وبدأت أستحضر الكثير من الأحداث البعيدة والقريبة في ذهني، وأستخلص منها سطحية قيمنا وأفكارنا. كنت أعرف أسرة متحررة متميزة بحماستها القومية والوطنية، وقد زرع الأب في نفوس أبنائه حب الوطن والحماسة لحقوقه والاستبسال في سبيله وكان يحفظ عن ظهر قلب دواوين الشعراء الثوريين، خاصة أشعار الفلسطينيين أمثال محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وغيرهم. وكنا جميعاً ـ جيل الشباب الثوري ـ نحب هذا الأب الرائع المتدفق حماسةً وشباباً، لكنه حين علم أن أحد أولاده ـ وكان طبيباً متفوقاً ـ ترك الطب ليصير فدائياً، يشترك بعمليات فدائية في لبنان وفلسطين ضد إسرائيل، جنّ جنونه، وطار صوابه، وما عاد يهمه أن تهتز صورته في أذهاننا، صار يشتم أولاد الحرام الذين أثّروا على ابنه وقادوه إلى الموت، وفعلاً استشهد الطبيب الشاب في إحدى عملياته الفدائية واستطاع أن يفجّر دبابة إسرائيلية ضخمة، وانفجر جسده مع الدبابة متلاشياً نتفاً نتفاً وقد تناثرت هذه النتف على مساحات واسعة، وأنبتت حقولاً من شقائق النعمان من يتنشقها تسري فيه حرارة الحياة الحق.

أنا لا أستطيع أن ألوم الوالد المفجوع بابنه، ولكن حين أتذكر حماسه الغريب لكل ثورة وانتفاضة، وتمايله طرباً ونشوة وهو يقرأ:

هنا على صدوركم باقون كالجدار،
وفي حلوقكم كقطعة الزجاج، كالصبار
وفي عيونكم زوبعة من نار

كنت أشعر أن هناك حلقة مفقودة، أو فجوة تحتاج لمن يردمها، أليس هو من أنشأ أولاده على هذه الحماسة، وزرع في نفوسهم بذرة الكفاح الوطني، أم أنه مجرد كلام، لا، ليس مجرد كلام، إنه يؤمن بهذا الكلام شرط أن يظل بعيداً عن أولاده، عن ممتلكاته عن أنانيته.

أذكر عائلة ثانية كانت صديقة لأسرتنا، وكانت الأم متدينة جداً، لا تترك صلاة أو صياماً يفوتانها، وكان منزلها مزيّناً بصور القديسين، وكانت تعتز بصداقاتها للراهبات والرهبان وتدعوهم باستمرار إلى بيتها، وتسافر لتقضي عدة أيام في أحد أديرة الراهبات، هذه السيدة التقية الورعة التي كانت تذرف الدموع سخية أيام ـ جناز المسيح ـ جنّ جنونها حين علمت أن ابنتها تود أن تصير راهبة، وصارت تلجأ لكل صديقات ابنتها ليقنعوها أن تعدل عن رأيها، وكنت واحدة من الصديقات اللاتي لجأت إليهن، وأخذت تحدثني مرتجفة من الغضب والحنق وقد فارقتها حالة النعمة التي كانت تستفيض في التحدث عنها، ولطالما تساءلت، كيف تحس باستمرار بحالة النعمة والسلام الروحي، ألا يعقل أن تكون أحاسيسها أوهاماً وتهيئات، ولكني كنت أكف عن الشك مؤنبة نفسي أنني أظلم امرأة قديسة. وقالت لي بصوتها الكدِر: صبية حلوة تريد أن تدفن نفسها في الحياة، أن تصير راهبة تعيش في دير

منفي كأنه السجن، تدفن شبابها وجمالها وعلمها، جريمة، حرام، إن الفتاة الطبيعية تفكر بالزواج، بزوج وأطفال يملؤون عليها حياتها، أرجوك يا ابنتي كلميها، المجنونة تقدم لها عريس ممتاز، محام لامع، جميل، ثري، وتفضل عليه أوهاماً وسجناً، تصوري تريد أن تصير راهبة.

ووجدتني أجيبها: ولكن ألستِ أنت من شبعتها بهذه الأفكار منذ صغرها، ألم تشجعيها على الصيام والتدين، وكنت تصحبينها إلى الدير معك.

ولم تتركني أكمل، صرخت فاقدة الصبر، أجل، ولكن لا أريدها أن تكون راهبة.

وعرفت أن إمكانية الحوار مستحيلة مع والدة صديقتي، وأخذت أقضي ساعات طويلة أُقلّب صور حياتنا البراقة اللامعة. وأنظر جيداً وراء هذه اللوحات لأرى الغبار المتراكم منذ سنوات، وشباك العنكبوت والعث ينهش ويفتك في العمق دون أن يصل إلى السطح بعد، وكنت أتساءل بدهشة: أية قيم يؤمن بها الأهل إذاً؟!. إنها مجرد كلام يشعرون أن من واجبهم قوله أمام أولادهم، وأنا دونكيشوتة الحالمة فتحت عيني على الدنيا وكتب أمي وأبي تحاصرني، وتخلق لي جدراناً وأسواراً أعيش داخلها، إن جريمتي الوحيدة التي ارتكبتها أنني حاولت أن أعيش أفكاري، أن أتوحد، ألا أكون اثنتين متناقضتين في امرأة واحدة.

لقد كانت صدمة أبي كبيرة أن دونكيشوتته الحالمة تحوّلت لامرأة ذات تجربة، صارت تشبه نيتوتشكا وآنا كارنينا، وقد وعيت كيف أن الفتاة في بلادنا تتأرجح بين خانتين أو مسكنين أو علبتين، إما العذراء الطاهرة حتى لو بلغت السبعين، أو الزوجة المطيعة المعطاء

التي تفني نفسها في سبيل زوجها وأولادها، وتضيع حدودها وشخصيتها تماماً، خارج هاتين الحلقتين لا توجد المرأة أبداً في بلادنا، إلا وتكون شاذة، فالمرأة صاحبة التجربة امرأة مغضوب عليها، والتي تطلّق يصبح اسمها مطلّقة، ينسى الناس اسمها ومهنتها وميزاتها، ليصير اسمها مطلّقة بما تعني هذه الكلمة من معانٍ كثيرة سأتحدث عنها فيما بعد.

لقد كنتُ أحس بسعادة غريبة معربدة في داخلي وأنا أتقمّص شخصية المطلّقة، وكنت أعي بعمق كيف أنني أتبلور وأصير أكثر فهماً وأوسع أفقاً وأشد ذكاء وأنا أجلس على كرسي الحكمة أو كرسي المطلّقات، وإن إحساسي بذاتي وأفكاري وأنوثتي لم تنضج إلا بعد أن عشت أبعاد كلمة مطلّقة، وكيف صرت أمتلك فراسة مدهشة، لكأنني أمتلك طاقات سحرية. لقد تحولت فعلاً لساحرة تملك عيناها إشعاعاً خاصاً قادراً على اختراق الجلد والعضلات والعظام كالأشعة السينية تماماً، بل صرت قادرة على قراءة الأفكار والصور المرسومة والمختبئة في تلافيف دماغ الناس الذين أحتك بهم، أو حتى الذين أراهم للمرة الأولى.

لقد اكتشفت الرائحة الخاصة بالمطلّقة. تلك الرائحة المميزة التي تستميل كل الرجال الذين يعانون من الملل الزوجي، بل تحرّض في الأزواج المخلصين حب المغامرة. وتطلق خيال كل عازب ليرسم المغامرات مع المطلّقة ويشبع كبته إلى الأنثى، خاصة أن الحصول على فتاة عذراء أمر صعب إن لم يكن مستحيلاً، أو غير قابل للتطبيق إلا في قفص الزواج، والمغامرة مع متزوجة تكون محفوفة بالمخاطر، فقد يكتشف الزوج الخيانة، وما يجر ذلك من متاعب وفضائح، لذلك فكلمة مطلّقة تريح أعصاب العازبين، المتزوجين

وتجعلهم يشعرون أنهم يدخلون بيتاً بابه موارب وليس مغلقاً.

وتفقد المطلّقة من حيث لا تدري كل حصانة أخلاقية، ويتغير الناس في تفسير شكلها وسلوكها وحركاتها. فإذا كان شكلها بريئاً. يقولون: هذه البراءة، ليست إلا قناعاً لتخفي حقيقتها البشعة الفاسقة. وإذا كانت جميلة وفائضة الأنوثة يقولون جمالها جرّ عليها طريق العصيان ومخالفة الأخلاق العامة، ورمى بها في هوة لا قرار لها هي الطلاق، وإذا كانت دميمة يقولون ما من رجل قادر أن يتحمل هذا القبح، خاصة إذا ترافق مع لقب مطلّقة!!

ويل للمطلّقة التي عاشت منطلقة قبل زواجها، فبعد الطلاق، وحين تحاول ترميم أشرعتها المنكسرة وبث الأمل الواهي في نفسها، وتحاول البداية من جديد، والخروج من قوقعة القهر والمشاكل والعذاب، تبتسم للحياة مجدداً بما تخفي هذه الابتسامة من جروح نازفة ساخنة، وذكريات موجعة، ويل لها من ابتسامتها، إنهم يحملونها كل إغواء الأنوثة، بل إنها دعوة صريحة للرجال بأصنافهم المختلفة متزوجين، وعازبين، صغاراً، كباراً، كهولاً، دعوة لعلاقة غرامية مع امرأة مجرَّبة، خبيرة بالرجال والحياة الجنسية. من أين أتتها هذه الخبرة الله أعلم، بل الحقيقة أنها أبعد ما تكون عن تلك الخبرة بحكم الصراعات والخلافات المستمرة مع زوجها، التي أدت بالنهاية إلى الطلاق، وعلى الغالب تكون معقّدة من العلاقات الجنسية مع رجل أساء معاملتها ولم تنجح في الاستمرار معه، بل يتحول الجنس إلى سوط جديد من جملة السياط الموجهة إليها، وتبدأ العيون النهمة تتفحصها، تعرّيها من ثيابها، وتستطلع مكامن الإغراء فيها، وفجأة يكثر المعجبون ويتكاثفون لدرجة تدهشها، وإذا لم تكن على درجة من الفهم والذكاء يوضحان لها أن

هذا الإعجاب لغاية يضمرونها في أنفسهم وهي الحصول عليها كفريسة سهلة المنال، فإنها تصدّق أن شخصيتها تثير الإعجاب حقاً، ولأنها ـ على الأغلب ـ تكون متعطشة للحب والحنان ولشروق جديد ينسيها ظلام ماضيها وآلامها وخيباتها، فإنها تسقط، وقد تحب أول ذئب يصادفها، تحبه بقوة اليأس والألم الذين طحناها دون رحمة، تحبه بقوة من يفرّ من كابوس رهيب، تحبّه وكأنه الأمل الوحيد وتراه المنقذ والمخلّص الذي يسعفها وهو راكب على حصانه الأبيض كأمير شهم يمد يده لينتشلها من ذراعيها، ويجلسها أمامه على حصان الأحلام، ويطيران معاً نحو سماء الحب دون أن تعرف أنه سيحلّق بها عالياً، ليرميها من أعلى نقطة يبلغانها في طيرانهما المعاكس للجاذبية الأخلاقية أو الأرضية، ويتركها تهوي وحدها في هوة عميقة لا قرار لها؛ تبطّن جدرانها ألسنة طويلة تتحرك باستمرار تشبه السياط.

* * *

أتوقف عامدة عن الكتابة، وأُحكم إغلاق علبة السنين، وأقول لها أنتِ خارجي، ويغمرني إحساس نقي كالفجر يغمر الطبيعة بإشعاعاته الأولى فيضيئها، ويكشف ألوانها، وتكسو عيني غشاوة دمع رقيقة وأنا أحس بكياني كله أنني أم، وأن وحيدتي الحلوة الصغيرة تفوّقت على علم النفس وعلى الفلسفة وعلى العلوم الإنسانية كلها، فنظرة واحدة من عينيها الطفوليتين تذيب كل تناقضاتي وآلامي وقلقي.

حين تمسح شعري ووجهي بكفيها الصغيرتين، أحس أنها تمسحني بزيت وطيب، فأتحول لحمامة بيضاء حرّة، سعيدة، لا تعرف سوى الحب...

يستحيل أن تُعايش طفلاً، وتبقى ذرة حقد صغيرة في أعماقك، الطفولة تذيب الحقد، تمحوه، تحوّله إلى حب.. وأنا علّمتني صغيرتي أعمق معاني الحب، إنها تربّيني، كما أربّيها. وأحياناً أدفن رأسي في حضنها الصغير، فتطوّق عنقي بذراعيها، فأحس أنني أنا الصغيرة، وهي الماما، نتبادل الأدوار، أقول لها أنت خلقتني أماً، جعلتني أماً... ولّدت فيّ مطلق الحب، جعلتني أعرف كيف يحب الإنسان شخصاً أكثر من ذاته، وكيف تصير ابتساماتك هي سعادتي الحقيقة التي ما بعدها سعادة....

وأتذكر قول السيد المسيح "إن لم تكونوا كالأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السموات" وأنا كل يوم أقترب من عالم الطفولة، يسحرني، يعلّمني، يخلق فيّ بذور فرح تقاوم العفن والموت، وقد خبرتُ بنفسي ومراراً، كيف أعادتني كلمة ماما ـ تنطقها ابنتي بصوتها الطفولي العذب ـ من عوالم موحشة معتمة يختنق فيها الأمل والرجاء، وكيف خلقت هذه الكلمة السحرية الرائعة إشراقات وفضاءات لا نهائية أمام عيني، لكأن قوة سحرية تمسّني حين تناديني لمى ماما...

وأنا متأكدة أن أمراض الكبار لا يشفيها إلا الصغار، لأن عالم الصغار لا يعرف الحقد، ولا يعرف المكائد ولا المطامع، ولا الجشع... إنه عالم الفرح الصافي الذي للأسف ننظر إليه بتعالٍ وجهل وغباء، غير قادرين على سبر أغواره.

أُمّ

مدّت يدها الصغيرة البضّة، لتمسك بيدي، فأحسستُ بحرارة الراحة الطفولية وطراوتها وتأملتُ وجهها النضر الحلو الذي نُقشت ملامحه في قلبي، وهمستُ بصوتٍ لا تسمعه: آه يا حبيبتي لو تعرفين أن الماما مُتعبة، مُشرّدة، تحتاجُ ليد حانية تُمسك يدها كيدها التي تمسك يدك.

أحسُ بها كيف تشعر بالاطمئنان والسعادة فهي مع الماما. الماما التي تُحبها كثيراً، تغرقها بعواطفها، تسرّح شعرها، تُلبسها ثيابها النظيفة دوماً، تغسل قدميها الصغيرتين تجففهما وتقبلهما طويلاً، الماما التي تسهر على مرضها وتبكي، الماما التي تحكي لها حكايات حلوة وتغني لها أو التي تعلمت الغناء لأجلها، وصار صوتها حلواً.

أسمع صوتها الحلو تسأل: ألن تأخذيني إلى الحديقة؟

أجيبُ على الفور: حاضر يا لمى.

فأشعر بسعادتها من راحتها المستقرة المرتاحة في يدي، ولا أتمالك نفسي أنحني لأقبّل الوجنة الوردية والجبين العريض، وأشم رائحتها الطفولية، فتغمرني دفقة من المشاعر القوية نحو طفلتي الرائعة.

وفي الحديقة الكئيبة التي لا تحتوي زهرة واحدة، ولا نبتة خضراء. وقد اختزل نصفها لتوسيع الطريق، في الحديقة التي تُحبها لمى، وقد تعطّلت أغلب ألعابها وتحوّلت لحديد صدئ، ثمة مرجوحة تجلس فيها وحيدتي وتقول: ماما مرجحيني، فأمرجحها، فيتورد وجهها وتضحك، وهي تقول: أقوى يا ماما، أقوى، شدي

أكثر.

وتصيرُ لمى فراشة حلوة تطير في الحديقة.

أقول لها: لمى تمسّكي جيداً بمساند الأرجوحة.

تجيبني بثقة: لا تخافي يا ماما، اطمئني..

آه يا لمى، يا روح الماما، لو تعرفين كيف يعشش الخوف في قلبي، آه يا لمى لم تعرفي بعد الخوف، وأتمنى ألا تعرفيه أبداً، ولكن هل هذا ممكن، إذا عرفته يا لمى لن تعودي طفلة صغيرة نضرة، ستصيرين كبيرة بهيئة طفلة صغيرة، آه كم أتمنى يا حلوتي ألا تعرفي الخوف.

تغمض لمى عينيها وهي تتمرجح وتقول حالمة: آه ما أحلى الحديقة.

وأحس بسعادتها تخفق في قلبها الطفولي الصغير، وتنتشر خارجه لتغمرني وتغمر العالم حولي، فأحس للحظة أني وصلتُ إلى جوهر الحياة، وأني تطهّرت من كل الشوائب والمخاوف والهموم، لأذوب مع لمى في سعادتها الطفولية العذبة.

تحس حبيبتي الصغيرة بالعطش، تطلب عصيراً، كم أحب أن تطلب مني وأن ألبي وكم أحزن حين أعجز أن أُلبي، لكن حبيبتي الصغيرة قنوعة، لا تطلب كثيراً، كأنها تعرف بسرها أن الماما لا تملك الكثير، تحس بذلك دون أن أقول لها، أفتح حقيبتي التي تحمل نقوداً قليلة دوماً، أشتري للمى عصير الليمون الذي تحبه، أتأملها تشربه، ترتوي به، وأتأمل شفتيها المزمومتين حول المصاصة، تشربُ لمى العصير كله، وتنفخ علبته الورقية المثلثة ثم ترميها أرضاً وتدوسها بقوة بقدمها، فيصدر صوت عال من تمزّق العلبة الفارغة، تضحك لمى وتصفق فرحة، أفتح ذراعي وأقول لها تعالي، أسرعي

إلى حضني، تركض مرتمية في حضني، فأستمد من حرارتها ودفئها وقوداً لنفسي الباردة من افتقارها للدفء والصدق في العلاقات الإنسانية.

أجلس على المقعد الخشبي المهترئ، وقد تخلّعتْ أغلب ألواح الخشب التي تكوّنه أُجلس لمى في حضني، أسألها: لمى هل أنت سعيدة؟

تضحك وتقول: نعم.

وأسأل دون أن أملّ هذا السؤال: هل تحبين الماما.

تستدير لتواجهني بعينيها الذكيتين الحلوتين: جداً جداً وتقبلني.

أضمها إلى صدري، وأتمنى لو نلتحم هكذا إلى الأبد، وأهمس في أذنها دون أن تسمعني وأقول: آه يا لمى، أنت الأمل وأنت الرجاء.

تسألني لمى فجأة: أين خاتمك يا ماما؟

أضحك: – ماذا لو أجبتها أني بعته.

لكني أقول: لقد ضاع يا لمى.

وتتساءل ببراءة: وكيف ضاع؟

– أظن أنه ضاع وأنا أغسل الثياب، بالتأكيد وقع من يدي وضاع.

فتقتنع فوراً ودون أن تساورها الشكوك، فالطفل لا يعرف الشك، بل لا يشك بكلام والديه أبداً.

– ولكن، كيف تضيّع الماما أغراضها، وهي توصيني ألا أضيع أغراضي؟

– آه، معك حق يا لمى، لقد أخطأت، وكان يجب أن أكون أكثر انتباهاً.

تبتسم لمى وتقبلني وتقول: لا بأس.

تسألني: متى سنشتري ثياب العيد؟

أغص وأنا أجيب: قريباً يا لمى.

لكنها تلح: قولي متى؟

– عندما سأقبض راتبي.

– ومتى ستقبضين راتبك؟

أضحك من أسلوب المحققة الصغيرة وأقول: اطمئني سأقبضه قبل العيد.

فترتاح لمى. فأسألها: ماذا تريد حبيبتي الصغيرة؟

يسرح نظرها بعيداً، وتنتفض من حضني وتقوم لتقف مواجهتي وتقول بحماس:

– أريد فستاناً أحمر له كشاكش، وحذاء أبيض، وجورباً أبيض منقطاً بقلوب صغيرة حمراء مثل جوارب فاتن.

وتستدرك آه أريد حقيبة يد أيضاً.

أضحك وأنا أتفرج على لمى ترسم أحلامها ببراعة ودقة.

– وماذا أيضاً يا حبيبتي؟

تنظر إليّ تلك النظرة التي تعرف بحدسها الطفولي أني أستسلم لها تماماً فلا أرفض لها طلباً.

– أريد اللعبة التي وعدتني بها منذ زمن بعيد، ألم تقولي سأشتريها لك على العيد.

أسأل بقلب واجف، أية لعبة؟

– تلك اللعبة الشقراء التي تملك خزانة ثياب وردية ومشطاً ومرآة صغيرة ولفافات شعر، ألم تتذكري.

– آه تذكرت، حاضر يا لمى.

تضحك لمى وتعود لتجلس في حضني وتقبلني وتقول: آه متى سيأتي العيد؟

فأرد بسرور: أنت العيد يا لمى، صدقيني أنت العيد.

تصرخ بسرور: ماما، انظري فراشة.

وتقفز من حضني لتطارد الفراشة، فراشة تطارد فراشة.

أقسم لعينيها الرائعتين أني سأشتري لها كل ما طلبته، وأتمنى لو يكفي راتبي لأغراض العيد، أظنه يكفي لشراء حذاء وفستان، أما اللعبة فأتمنى لو تنساها قليلاً.

أناديها: هيا يا لمى، تعالي يجب أن نذهب.

تمدّ لي يدها الطفولية الصغيرة، فأمسكها، فتستسلم لي أقودها حيث أشاء، وحيث تشاء الحياة، فأنا القدر والمستقبل والأحلام التي تدغدغ خيال لمى، كلمة ماما تلتحم بكل شيء، وأحس يدها تغفو في يدي مطمئنة مرتاحة، ويدي تمسك بيدها مرتجفة خائفة من الحاضر ومن المستقبل وعاتبة على الماضي، آه يا لمى الماما تطلب العون، لكن في قلبها حباً لا يعرف الهزيمة، حب أم لطفلها. يجب أن تظلي سعيدة يا لمى، يجب أن يدفعنا الأطفال للانتصار على كل العقبات والأحزان والإحباطات، يجب أن ينتصر الأطفال على المستحيل.